كتابات جديدة



المطارودون

بقلم

زهير الشايب

كتابات جديدة

المطاردون

مجموعة قصص قصيرة

بقلم
زهير أحمد الشايب

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠

الغريب

مضت فترة طويلة وهو واقف على المحطة يستعرض « الأتوبيسات » التى تعبر الشارع ولا يود الركوب ، فلم يكن ينتظر « أتوبيسا » معينا • كان فقط يريد أى أتوبيس قليل الزحام • اذ هو لا يقصد جهة بعينها ، فكل جهات القاهرة جميلة يود أن يراها • كان التجوال بالنسبة له هدفا فى حد ذاته • وهم أن يسأل من حوله عن أماكن معينة لكنه خشى ذلك ، فسوف يعرفون انه غريب ، وقد يقع ضحية لنصاب • طالما سمع عن أناس غرروا بأمثاله وذلك لا يجب أن يحدث معه ، ولن يوجد على الاطلاق من يستطيع أن يغرر به • لكن من الخير الايسأل أحدا وهو يستطيع أن يوجه نفسه • عاد ثانية يتحسس ملابسه • اطمأن الى أن كل شىء على ما يرام •• فقد وجد أوراقه الخاصة ونقوده كما هى موزعه على كافة جيوبه • كان قد وضع الأوراق المالية الكبيرة فى الجيب الأمامى الصغير « لبنطلونه » ، فهذا الجيب كما قيل له هو أصعب منطقة فى ملابسه كلها على النشالين • ولم تكن جيوب « جاكته » الخارجية تضم سوى القروش والقطع النقدية الصغيرة مما يحتاج اليه دوما لشراء حاجياته ثم تلفت حوله • هل لاحظه أحد ؟ يجب أن يحترس • قد يكون ثمة لص قد شاهده فى الخفاء فيتتبعه وفى زحام « الأتوبيس » يسهل كل شىء • انهم مهرة بارعون ، سمع الكثير عن مغامراتهم وحذره الكثيرون منهم •• ونظر الى المحيطين به فى شك وريبة ، لكن أحدا لم يكن يعيره التفاتا ، وأخذ يتأمل أشكالهم فلم يجد من بينهم من يثير الشكوك • كانوا حسنى الهندام لامعى الشعور ، تنطق سيماهم بالكبرياء والاعتداد ، وشعر انه يتضاءل الى جوارهم • ونظر الى ملابسه بامتعاض • لقد ذابت أناقتها ، وفقدت جاذبيتها ،

انه يعد فى قريته أشد الناس تأنقا فلماذا فقدت ملابسه بريقها ؟ حتى حذاءه اللامع الجديد فقد ـ هو الآخر ـ بريقه • وتألم شعر أن شيئا من مكونات ذاته قد ضاع • وعاد ينظر الى من حوله • كانت الناس تتغير باستمرار • كلما جاء أتوبيس تخلخلت الدائرة وخف الزحام • هنا ينتعش الأمل فى قلبه فسوف يمكنه أن يركب دون أن يزاحمه أحد • لكن الدائرة ما تلبث أن تستعيد كثافتها • عجبا من أين يأتى كل هؤلاء ؟ ••ازداد شعوره بالضآلة وهو يتأمل من حوله من جديد • وتركزت نظراته على احدى الفتيات كانت رائعة فى جمالها ، أنيقة فى هندامها • انشغل بها تماما • ظل ينظر اليها ، ونظرت اليه • دق قلبه بعنف ، لطالما سمع عن مغامرات الغرام السهل فى القاهرة ، هل حقا واتاه الحظ ؟ ••• حاول أن يبتسم • أن يتكلم • لكن قوة خفية شلته • ونسى حذره وخوفه • نسى نفسه ••• ود لو يقدم نفسه لها لو يمنحها كل ما معه ثمن كلمة •• واكتشف فى أسى أن الفتاة لا تنظر اليه •• اكتأب •• وفكر ، كيف يجذب انتباهها ؟ ان الفتيات يعبدن المال • لم لا يخرج ما خبأه بحذر فى جيوبه ؟ لعل بريق المال يستهوى قلبها •• ويبدو أن الفتاة قد شعرت بما يدور بخلده فوضعت حدا لعذابه • تركت المنطقة فجأة وركبت « الأتوبيس » القادم • وذهل عندما رآها تفارقه • شعر انه غريب ضئيل • ثم أفاق لنفسه • لماذا لم يركب خلفها ؟ حاول اللحاق بالأتوبيس ففشل • ثم أفاق الى نفسه أكثر وأكثر ، فتبين له سخف أفكاره ، وضحك من نفسه ، وحمد الله أن توقف الأمر عند هذا الحد ، من يدرى ؟ ربما كانت نشالة تغرى الناس بمظهرها • لا يجب أن ينخدع ، فما أسهل الخداع هنا •• لم لا تكون نشالة ؟ أليس النشال واحدا من هؤلاء؟ •• وعاد ينظر الى الناس بريبة • لم يعد بريقهم يربكه أو يخيفه • فاللص واحد منهم على أى حال • قد يكون هو هذا (الأفندى) الأنيق ، وقد يكون

هو هذا الشيخ المعمم •• كل شيء جائز شعر انه يختنق فى هذه الدائرة •• وود لو يهرب من هذا المكان ، فرأسه يكاد ينفجر •• وتنبه الى أنه قد وقف لمدة طويلة ، وخاف أن يشـــك الناس فى أمره •وفوجىء أن بعض النظرات تصوب اليه فى فضول •• لابد أنها نظرات اتهـام • يا الهى ماذا يفعل ليقول للنـــاس انه ليس لصا •• انه شريف ؟ •• شـعر انه يخشى من حوله ويخافهم • لا مفر من ظنونهم الا أن يغادر المكان وحتى لا تتطور الأمور فى غير صالحه •• ولقد أسعده الحظ « بأتوبيس » قليل الزحام • ركب فى احتراس • انتظر حتى ركب كل من شاء • واختار مكانا بعيدا عن الناس • تحاشى أن يلمس أحدا أو يلمسه أحد • أحكم اقفـــال « جاكته » وأمسك بيمناه حديد أحد المقاعد حتى لا يقع ، كانت تلك وسيلة ذكية للاحتراس • انه يحمى بيده تلك ما يخشى عليه فى جيوبه ••• ووضع يسراه فى جيب سترته الخارجى ولم يكن فى هذا الجيب ما يخشى عليه ، لكن يده فى جيبه دليل براءته ، لن يتهمه أحد بنشله وهو على هذه الحال • هل يمكن أن يشك فيه أحد ؟ مهما يكن فمن الخير أن يحترس • وبدأ شـــعور الوحـدة يمزقه وازداد شعوره بالغربة ••• أهذه حاله فى القـاهرة التى سهر الليالى بطولها يحلم برؤياها ؟ ••• وحانت منه التفاتة الى أحد المقاعد ، ووقع بصره على فتاة أنيقة ، (وكل فتيات القاهرة أنيقات) •• شعر بعطرها يتسلل الى أنفه فى عذوبة ورقة ، فاسترد بعض شجاعته وثقته بمن حوله ، وعادت القاهرة الى صورتها الأولى فى خياله ، رائعة جميلة وجاء المحصل :

ـ تذاكر •

ناوله ورقة من ذات العشرة قروش كعادته عندما يحرج لعدم معرفته الثمن المطلوب •

ـ فين ؟

حار في الرد فهو لا يدرى شـــيئا عن المناطق التى يعبرها « الأتوبيس » لكن شيئا لا يدريه ألهمه الرد الذى أنقذه من حيرته :

ـ للآخر ..

تناول التذكرة ووضع الباقى فى جيب سترته الخارجى . وشغلته الفتاة عن كل شيء . ثم تنبه الى أنه قد نظر اليها أكثر من اللازم . ماذا يقول الناس عنه ؟ حاول أن ينشغل عنها فنظر من خلال النـافذة القريبة منه الى خارج « الأتوبيس » . كانت العربة تطوى عالما هائلا جميلا يود لو يجوس بقدميه فى كل شبر فيه . لو سار على قدميه لاستطاع أن يتأمل هذه المدينة الرائعة . لماذا أصر على الركوب طالما هـو لا يقصـد مكانا بعينه ؟ لكن ، لعل ركوب « الأتوبيس » داخل المدينة كان مغامرة يود القيام بها . آه .. كل شيء جميل فى القاهرة أناسها . شوارعها . بيوتها . كل شيء فيها جميل . فقط لو لم يكن بهـــا نشـــالون . لـكن ماذا يهمه الآن وقد احترس منهم ؟ كم يود لو أن حياته كلها تمضى هنا . تلك نعمة يود لم تتحقق. سيطلب الى عمه أن يبحث له عن عمل هنا وسيترك عمله فى قريته .. ابتسم فى سعادة وعاد ينظر الى داخل العربة . راعه أن الفتاة نهضت استعدادا للنزول بل أصبحت قريبة من الباب . شق طريقه بلهفة وسط الجموع التى تكدسـت داخل العربـة والتى لا يـدرى متى ركبت ... وعنـدما توقف « الأتوبيس » نزل خلفها . ماذا يريد منها ؟ لا يدرى . ولم يطل به الأمر هكذا ، فقد وجد الفتاة تحيي أحد الواقفين فى انتظارها فى لهفة . ونظر اليها فاغرا فاه ، ومضت الفتاة مع فتاها دون أن يعيراه التفاتا . وشعر بنفسه يزداد ضآلة وانكماشا ، فتسمر فى مكانه لحظة لا يدرى مداها ... أخذ ينظر الى الميدان الفسيح الذى

تتدفق فيه الحركة ويزداد فيه الضجيج ‥ الى أين يمكن له أن يتوجه ؟ عشرات الشوارع تبدأ من هذا الميدان وتصب فيه ‥ يستطيع أن يسلك واحدا منها ولكنه لا يجرؤ ‥ قد يتوه . شعر كأنه يغوص فى محيط لا قرار له وهو لا يدرى شيئا عن السباحة ‥ وظل لفترة على هذه الحال . لكنه اســـتعاد ثقته بنفسه . تذكر رقم الأتوبيس الذى أقله الى هنا ، لو حزب به الأمر سيعود بنفس الطريقة . لا خوف اذن من أن يتوه . وبدأت الدوامة المحيطة به تشده الى خارج نفسه ، فعاد يتأمل الناس ، وانشغل قليلا بمرأى مركبات الترام والعربات وهى تمضى فى كل اتجاه . دوامة حقا . ونظر الى نفسه وهو يتضاءل ويخاف . يا الهى . هل يدرى الناس فى قريته ماذا يعانى الآن ؟ ‥ أيصدقون أن فتاهم المرموق يشعر بتفاهته هنا ؟ بدأ يحاول الهروب من أزمته تلك وحار أى اتجاه يأخذ . ولم تطل به الحيرة فسرعان ما اتخذ طريقه خلف احدى الغاديات . سار بعيدا عنها بمسافة كافية . رأى البعض يعترض طريقها فى جرأة ويلقى على مسامعها كلمات الغزل . لماذا لا يتجرأ هو الآخر ؟ اقترب منها أكثر حتى أصبح على بعد خطوات منها . لكن قلبه دق بعنف ، وانتشرت دقات قلبه فى دماغه فدارت به الأرض . حاول أن يتماسك ، وعاد ينظر الى ملابسه . أيعقل أن فتاة مثلها تقبل أن تنظر اليه بملابســه تلك ؟ لم يكن يظن على الاطـلاق أن ملابسه بهذه الخشونة ، والقدم . عندما كان فى طريقه الى هنا كان شعوره مختلفا تماما . كثيرا ما تأمل نفسه فى المرآة بهذه الملابس التى يحتفظ بها خصيصا للرسميات ولزيارة القاهرة منذ ترك المدرسة والدراسة . أخذ ينظر الى ملابسه نظرة جديدة . ونظر أيضا الى حذائه الذى يلبسه لأول مرة . لماذا يعلوه التراب ؟ وآثر أن يعود من خلف الفتاة . وعاد يتفحص وجوه المارة . وجدهم مرحين يشقون طريقهم بعزم . انهم يعرفون وجهتهم وهو لا يدرى

لنفسه اتجاها • ما أصعب أن يكون وحيدا بالقاهرة • جميلة هذه القاهرة وفاتنة ، لكن ما أتعس الغريب فيها •• وتذكر ابناء قريته الذين نزحوا اليها وأقاموا فيها •• ان الحى الذى يسكنه عمه ملىء بأمثالهم •• كلهم وافدون الى القاهرة •• كلهم غرباء عنها •• لماذا يشعر هو وحده انه غريب ؟ أمدته هذه الفكرة بشىء من الشجاعة • لست وحدى الغريب اذن فكلنا غرباء •• لكن الوحدة قاتلة •• لماذا أصر على الخروج وحده ؟ كان ابن عمه سيصر على اصطحابه ، لكنه لم يشأ أن ينتظر عودته من المدرسة • فمنذ نزهة الليلة السابقة وهو يحلم أن يسير وحده بالشوارع • انه يود أن يختبر قدرته على توجيه نفسه • وثمة سبب أعمق • كانت الفتيات اللاتى رآهن فى الليل هن السبب • ما اسم ذلك الشارع الذى بهرته نساؤه ؟ •• آه •• شارع فؤاد • كيف يمكن أن يشق طريقه اليه ؟ خشى أن يسأل واحدا من المارة فعدل عن عزمه ونظر حوله من جديد • رأى فتاة جميلة تسير الى جوار شاب عادى الملابس • تأمل ملابس الشاب جيدا • ان أمثاله لهم أيضا مكانهم الى جوار الفتيات •• لماذا يتردد ؟ ولمح فتاة جميلة على الرصيف الآخر كانت تسير بتؤدة بايقاع جميل اهتز له قلبه • أخذ يعبر الشارع اليها فى لهفة • وفى الطريق كادت تدهمه العربات والسيارات • ونهره جندى المرور :

ـ يا أخى انتظر الاشارة • هو مافيش نظام ؟ مالك ملحوق على ايه ؟؟ •

وعلت وجهه حمرة الخجل • ما أصعب السير هنا • ان للسير نظاما فى هذه المدينة • حسن • عليه أن يحترس فى المرات القادمة• واقترب من الفتاة لكن كل عزم فيه كان قد تبخر ومر بجوارها فلم يخرج صوته من حلقه • ترى هل سمعت تأنيب الجندى له فعلمت انه لا يحسن السير فى شوارع القاهرة ؟ انه غريب •• ووضعت

الفتاة حدا لهواجسه فركبت الترام : ارتاح لذهابها وأسف في نفس الوقت • وداهمته فكرة أرعبته • ماذا يحدث لو أن واحدا من الناس اعترض طريقه ؟ لو أن واحدا ضربه هنا ؟ •• انكمش فى نفسه واتكأ على سور الشارع الحديدى كأنما يحتمى فيه •• وسار تيار الناس ، وعلا ضجيج الحياة ، وسخر من أفكاره وهواجسه فعاد يسير كيفما اتفق •• ووجد جمهرة من الناس فوقف قريبا منها •• ماذا يصنعون ؟ تبين أنهم أمام محل يبيع مشروبات مثلجة • هفت نفسه الى كوب تطفىء ظمأه •• تردد قليلا ثم تشجع وزاحم الناس •• ومد يده للبائع بورقة نقدية كدأبه عندما لايعرف الثمن المطلوب • ولم يعره البائع التفاتا •• وأخيرا سمعه يقول :

ـ هات مارك ••

لماذا تجاهله البائع وحده دون الجميع ؟ ظل واقفا فى اصرار كأنما يدافع عن وجوده :

ـ بقول لك هات مارك •• فيه نظام ••

نزلت الكلمات عليه كالصاعقة • لم يفهم شيئا مما قال ، وآثر أن ينسحب من الجمهرة وسار يلعق جراحه • لعن البائع بصوت مسموع وفوجىء أن الناس تتطلع اليه • خجل عندما أدرك ذلك • ماذا يظنون به ؟ مجنون ؟ •• عاد يتأمل نفسه وسط الناس • ان أحدا لا يعرفه • لا يدرى من هو • وتراءت له صورة سطوته فى قريته ، واحترام الناس له أينما ذهب وتناهت الى سمعه أصواتهم المستكينة وهم واقفون أمامه فى جمهرة كبيرة :

ـ يا فوزى أفندى •• يا أستاذ فوزى •• والنبى تعمل معروف •

وكلمات كثيرة تطلب اليه أن يتعطف عليهم وهو يصيح فيهم :

ـ مش حاعمل حاجة الا آذا وقفتم طابور • احنا عاوزين نظام اللى ييجى عليه الدور يقـــدم بطاقة التموين بتاعته •• ايه البهايم دى •• ؟ ••

ويصر على تنفيذ أوامـره ، ويتغلب الواقفون على كل مافى نفوسهم من تطلع وقلق ويحترمون النظام ، ما دام ذلك هو ما يريده السيد كاتب جمعيتهم التعاونية ••

النظام ؟؟ سخر من نفسه وهو يستعيد هذا المشهد • ماذا يقولون لو علموا أن جندى المرور قد أنبه من أجل النظام الذى يؤنبهم هو نفسه من أجله ولا يصرف لهم مواد تموينهم الا عندما يحترمونه • فيقفوا طابورا لا عوج فيه •• وعادت صـــورتهم وهم يتراجعون أمام صـوته الجهورى وشخطه العـالى فى اضطراب •• كاد يسمع أصواتهم وتعليقاتهم المستسلمة المطيعة وتأمل ما هو فيه • وعاد صوت البائع الذى عنفه ورفض أن يبيع له يرن صداه فى اذنه « الكلب القذر » •• ونظر الى الناس المحيطة به وهى تمر فى طريقها دون أن تعيره التفاتا لكنه لم يعد يشعر بالأسف لذلك • ثمة شىء هنا يشده أكثر وينال تقديره أكثر من كل سلطان وعظمة فى قريته •• وعاد ينظر الى الفتيات فى شغف • لم يكن يسير فى اتجاه واحد مرسوم • كانت خطوات الفتيات واتجاههن هو الذى يحدد له الأماكن التى يسير فيها • لكن لماذا تهرب منه الفتيـــات جميعا ولا يبالين به أو يشعرن بوجوده ؟ وبدأ الضيق يتسرب الى نفسه واكتشف انه لا يزال فى نفس المنطقة التى نزل فيها مـنذ غادر « الأتوبيس » • أكثر من ساعتين وهو ذاهب عائد فى نفس الشوارع ومن نفس الطريق • ترى ماذا يقول الجالسون على المقاهى وهم يرونه هكذا يذهب خلف فتاة ويعود خلف أخرى ؟ •• بدأت فكرة اللامبالاة تخطر على ذهنه لأول مرة • ما شأنهم ؟ مادام أحد لن

يعرفه هنا فلا ضير .. لكن هذه الفكرة نفسها تسببت فى اكتئابه . لا أحد يعرفه هنا لذا فلاحظ له فى هذا الميدان .. الفتيات يهربن منه جميعا الى غيره أو الى داخل المحلات . وعاد يجرب حظه ويتأمل فتاة أخرى وقفت تستعرض محتويات احدى « الفاترينات » وفجأة وجد يدا غليظة تهز كتفه :



ـ اسمك ايه ؟

أصابه الرعب عندما سمع هـــذه اللهجة الجافة وعندما رأى تقاطيع محدثه الصارمة ، تماسك وأجاب :

ـ وأنت مالك ؟

ـ بقول لك اسمك ايه بلاش غلبة ؟ .

أجاب مستسلما صاغرا وهو يحاول جهده أن يبـــدو رابط الجاش :

ـ فوزى عبد المجيد رسلان .

ـ بتشتغل ايه ؟ .

ـ كاتب جمعية تعاونية .

ظن أن اجابته الأخيرة ســـيكون لها وقعها المدوى فى اذن سامعها لكن محدثه استمر كأن شيئا لم يلفت نظره :

ـ منين ؟؟

ـ من كفر سالم منوفية .

ـ هنا بتعمل ايه ؟

احتار في الرد • لكن شيئا من التحدي والتماسك عاد اليه فقال بغضب :

ـ وأنت مالك ؟ أنا حر أروح أى مكان ••

ثم أضاف بسذاجة فضحت عن خوفه :

ـ هو المشى فى الشارع ممنوع ؟؟

ولم يبال محدثه بغضبه أو احتجاجه :

ـ ادينى بطاقتك •

جاء الفرج • حمد الله أن حمل بطاقته معه وجاءه صوت من أعماقه « أخيرا ، حان للبطاقة أن تثبت فائدتها » مد يده الى جيبه الداخلى وكانت المفاجأة • لم يجد البطاقة معه • هل نسيها ؟ مستحيل انه يذكر جيدا انه يحملها مع بعض أوراقه الهامة وكان من حين لآخر يطمئن على ما بجيوبه • بحث جيدا فى جيوبه الأخرى بلا نتيجة • آه •• عملها اللصوص • هذا ما كان يخشاه منذ جاء • مد يده بخوف وفزع الى الجيب الأمامى الصغير لبنطلونه وعاد اليه بعض اطمئنانه ، فقد وجد أوراقه ترقد فى مكانها آمنة • حتى قروشه وجدها كما هى فى جيب « جاكته » الخارجى • كيف تسربت يد النشالين الى جيوبه الداخلية ؟ الملاعين •• هل أصبحوا فى خفية الهواء وخفته ؟ •• وتطلع الى محدثه فى تخاذل ، ووجده ينظر اليه فى شك ونفاد صبر :

ـ هيه •• فين بطاقتك ؟ ••

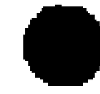
وشعر بخوف حقيقى غامض :

ـ ضاعت والله •••

ـ آى ضاعت • طب تعالى معايا ••

ـ فين ؟؟

ـ مش شغلك • دلوقت تعرف ـ تعالى •



أطاع الأمر صاغرا ، وصحب محدثه • وفى ركن غير بعيد طلب اليه أن يركب عربة ، ذهل عندمـــا وجد على أحد جانبيها كلمة « بوليس » • نظر الى من بداخلها فأصابه الهلع وتردد •

ـ اركب يا واد •

وركب ذليلا حزينا ، وأخذ يتأمل من حوله • كانوا مجموعة عجيبة من البشر • شباب ، وشيوخ وفتيات من كل عمر ، لكن سمة معينة تربط بينهم جميعا • سمة لا يدرى اسمها ، لكنه شعر نحوها بالخوف • انكمش داخل ملابسه بشدة حتى لايلامس جســـده لحم واحد ممن حوله • كانوا مغايرين له فى كل شيء ، كانوا يتضاحكون كأن الآمر لا يعنيهم وظل هو على خوفه واضطرابه، وخبطه واحد منهم على كتفه بغلظة :

ـ ما تروق يا أخينا وتوحد الله •••

ووجد ان الصمت هو خير ما يفعل مع هؤلاء الناس • ووصلت تعليقات أخرى الى أذنه :

ـ سيبه • دا باين عليه جديد على التخشيبة •

ـ هى دى يا واد أول مرة ؟ معلهش بكرة تاخد عليها •••

ـ دى لذيذة بشكل •

وقال صوت نسائى جاف وخشن :

ـ أهى أحسن من الغلب .

ـ السجن يا واد للرجالة .

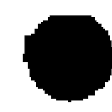
ورد الصوت النسائى نفسه :

ـ والنسوان كمان .

وضحكوا عاليا :

ـ أهو يا بنى هنـا تأكل وتشرب وانت مطمئن .. لوكاندة مجانا يا عبيط .. حد يطول ؟ ..

وفجأة وجد نفسه محور تعليقاتهم جميعا . وأفاق كأنما صب عليه دش بارد . أهو ذاهب حقا الى السجن ؟ ماذا فعل ؟ تذكر تجواله فى الشارع وسيره خلف البنات ونظراته اليهن .. هل لاحظه الرجل منذ نزوله الى الميدان ؟ أم أن ثمة عينا خفية فى القاهرة تتبع كل غريب حتى توقع به ؟ حتى تضبطه متلبسا . ألا ترى هذه العين سوى الغرباء ؟ لماذا اذن لا ترى كل ما يحدث فيها من مسـاخر وموبقات ؟ أم ان ما سمعه عن ذلك وهم أكاذيب ؟ يا الهى . لو ان أبناء قريته يرونه وهو على هذه الحال ، محـاط بتلك المخلوقات الشرسة . وطرأت على ذهنه فكرة ضحك منها رغم ما هو فيه . تذكر خوفه من النشالين واللصوص فتشاء الظروف الا ان تحيطه بهم . هؤلاء هم بلحمهم ودمهم . أناس مثله . يضحكون ككل الناس . كان يظنهم أفظع مما رآهم عليه .



كانت هذه أول مرة يدخل فيها أحد أقسام البوليس لذا فقـد كانت رهبته شديدة أول الأمر لكن لهجة الشاويش الذى أدار التحقيق مع الوافدين الجدد جعلته يسترد شيئا من هدوئه . بل لقد ابتسم أكثر من مرة وهو يسمع مثل هذا الحوار بين الشاويش وآحد النشالين :

ـ يا واد بقى مش حا تبطل تسرق ؟ ماتـــاكل بقى لقمة من عرقك ...

ـ أمال أنا باكل من عرق مين ؟ دا احنا بندوخ على ما نوقع الزبون .. دى الناس فتحت والعيشة بقت صعب .

ولم يصدق نفسه ان هذا يدور بين محقق ونشال . وســـمع فى دهشة حوارا آخر مع احدى الفتيات :

ـ وانت بقى يا بت يا توحة .. مش حاتبطلى وتتلمى .

ولمحه ينظر اليها نظرة ذات معنى كاد يترنح وهو يســـمع حديثها بصوت يتنافر مع هيئتها :

ـ أصل أنا بحب أبقى ضيفة عندكم على طول . أنا باموت فى عيش الحكومة ...

انها صغيرة السن فمنى ملأتها الايام بكل هذه المرارة ؟ واسترد هدوءه ووقف باستسلام يرقب ما يدور حوله . لكن فكرة طرأت على باله فاقلقته . قد يتهمونه بالنشل هو الآخر .. وخشى هذا الاتهام ، ووجد له ما يبرره ، فقد وفد الى القسم فى زمرة اللصوص والمشبوهين وعاد يتلمس جيبه الصغير ويتحسس أوراق النقد التى ترقد فيه فى دعة . « وهذا هو ما سرقت . أثمة دليل خير من ذلك ؟ » . انشغل ذهنه يبحث عن طريقة تبرئه . سيذكر عنوان عمه ولكن أفى هذادليل براءته ؟ كيف سيثبت أن هذا المال يخصه ؟ هل مجرد وجوده فى جيبه دليل على امتلاكه له ؟ اهتزت هذه الفكرة فى ذهنه لأول مرة فى حياته . ان كل من يحيط به الآن نشالون ووجود المال معهم كان دليل ادانة . حقا . كيف يثبت الانسان أن ما فى جيبه ملك خاص له ؟ ان كان ذلك متيسرا لكل شىء فهو صعب بالنسبة للمال بالذات فالمال شىء متداول تتناوله ألوف الأيدى وتفرغ منه الجيوب وتمتلىء

كيف يقوم الدليل على ملكيته له ؟ لو قال هو ملكى لانه فى جيبى لكان ذلك حجة قوية لكل نشال ٠٠ وانسدت كل سبل النجاة فى وجهه فهو لص لا محالة ، وفد على القسم فى زمرة النشالين واللصوص وضاق ذرعا بما يحمل من مال ود لو ينفرد بنفسه ليلقيه بعيدا عنه ويتخلص بذلك من جسم الجريمة ٠ لكن من يدرى ؟ ٠٠ ربما لا تكون هذه تهمته ٠ ربما جيء به لأنه تعرض للبنات بسوء ٠ لكنه لم يقل كلمة واحدة لهن أهو سوء الحظ الذىأوقعه فجاء يدفع ثمن جرم الذين أهانوا الفتيات وخدشوا حياءهن أمامه لماذا هو فقط من دون الجميع ؟ لكن هذا الاتهام على كل حال أهون من سابقه ٠ يا الهى ٠ لص ؟ سيفصل من عمله بالتأكيد وسيفقد كل شيء ٠ ليته لم يأت الى هذا المكان ٠ لو كان قد اختار اتجاها آخر ، أو سار فى منطقة أخرى ٠٠ أو لم يأت الى القاهرة على الاطلاق ، ما حدث له شيء من هذا ٠

وأفاق من هواجسه على صوت الشاويش :

ــ وانت يا واد عملت ايه ؟ ٠٠

ــ مفيش والله يا شاويش ٠

ويبدو أن المحقق لاحظ تخاذله وارتجافه فهب فيه صائحا :

ــ مفيش ؟ أمال جاى هنا ليه ؟ جايبينك تتفسح حضرتك ؟ ٠

واتخذ الشاويش لهجة المحقق الخطير :

ــ ما تعترف يا واد أحسن لك ٠٠ قال ما فيش قال ٠٠٠

ــ والله العظيم ما فى حاجة ٠٠

ونادى الشاويش بصوت جهورى اضطرب منه :

ــ يا أبو العينين ٠٠٠

ودخل الرجل الذى اقتاده الى القسم :

ـ قل لنا يا حضرة المخبر ·· الواد ده كان عمل ايه ؟

ـ ما شى يتلفت هنا وهنا · قلت له اسمك ايه ، قال مالكش دعوة ·

ـ أما بجح بصحيح ·· هيه ···

ـ قلت له فين بطاقتك · قال لى ضاعت ·

ـ بقى كده ؟ ضاعت ؟ ·

ـ المهم اشتبهت فيه قلت ناخده تحرى ·

وتوجه اليه الشاويش بغضب :

ـ يعنى مخالف القوانين ·· ومكسر أوامر الحكومة وعامل لمض ·· فين بطاقتك يا واد ؟

ـ والله ضاعت ·

ـ آ ·· ضاعت مادى حجة الكل ·· اسمك ايه ؟

ـ فوزى عبد المجيد رسلان ·

ـ كنت ماشى بتعمل ايه ؟ ··

واحتار فى الرد ، ثم قال بسذاجة :

ـ آه ·· ماشى زى كل الناس ·

وصاح الشاويش صيحة أرعبته ، مقلدا صوته بطريقة مضحكة :

ـ ماشى زى كل الناس ·· ماشى يعنى ايه ؟ انت فى الحتة دى بتعمل ايه · ؟

واستبدت به الحيرة « أعلى الانسان أن يبرر كل خطوة يخطوها هنا ؟ » ثم قال :

ـ هو لازم اللى يمشى يكون بيعمل حاجة ؟ ‥ يعنى كل الماشيين دول بيعملوا ؟

زفر الشاويش بنفاد صبر :

ـ أمال ايه ؟ ‥ صايعين زى حضرتك ؟

ـ أنا مش صايع ٠

ـ أمال سيادتك ايه ؟ وزير والا وزير ‥ ؟ ما تفهمنى أمال ‥ يمكن أنا ما بفهمش ‥

ـ أنا باشتغل كاتب جمعية تعاونية فى كفر سالم ٠ منوفية ٠

ـ شرفت ياخويا ‥ لكن ايه اللى يخلينى أصدقك دلوقت ٠ ؟

فأجاب وهو فى أشد الحيرة :

ـ وأنا حاكدب ليه ‥ ؟

ـ ليه ما تكونش حرامى ؟ ليه ما تكونش مجرم ؟ ليه مايكونش اسمك عطية والا حسنين ‥ أنا أعرفك منين ‥ ؟

كان يسمع هذا الكلام لأول مرة فى حياته فأجاب وهو لا يزال فى ذهوله :

ـ وأخليك تعرف ازاى ؟

ـ آ ‥ ازاى ؟ شىء بسيط ٠ بالبطاقة الشخصية ٠

ـ والله ضاعت ياشاويش ٠

ـ وايه اللى عرفنى برضه ؟ ٠

فقال وهو لا يدرى كيف أفلتت منه هذه الكلمة :

ـ يعنى الحتة الورقة دى هى اللى حتخليك تصدقنى ؟

ونظر اليه الشاويش بغضب وازدراء وقد ضاق ذرعا بجهله اللوائح والقوانين :

ـ انت باين عليك البعيد حمار .. أمال ايه يا أخينا .. الورقة اللى انت مستقل بها دى هى اللى أصدق من الدنيا كلها .. لو الناس كلها قالوا انك حرامى والبطاقة قالت لأ تبقى مش حرامى .. هات بطاقة مكتوب فيها انك ملك نقوم نقول لك يا مولانا المعظم . أمال نعرف المجرم م اللى مش مجرم ازاى ؟ كل الناس معاها بطاقة . اللى يقول ما معاييش يبقى حرامى .. أو نصاب .. أو هـ. بان من السجن .. انت بلدكم ايه ؟

ـ المنوفية .

ـ وبلدكم دى فيها حكومة والا لأ .. ؟

ـ طبعا فيها .

ـ تبقى لازم يكون فيها بطاقة .. انت فاكرهـا فوضى .. فاكرها سيبة .. ؟

وضاق بشخط الشاويش فيه وكاد يقول له « عاملنى كما كنت تعامل المجرمين » لكن شرح الشاويش اقنعه فعلا ان خطأه أشد فقال مستعطفا :

ـ وبعدين يا شاويش ؟ .. اعمل معروف .

ـ مالك عملت كده زى النسوان • ما تخليك لمض على طول •• السجن للجدعان •

ونظر فوزى اليه بعجب وهو يضيع حياته بهذه البساطة وقال فى دهشة :

ـ يا خبر •• سجن ؟ •

ـ فيه حد يعرفك هنا ؟

ـ أيوه •• عمى ••

وبعد أن أملاه اسم عمه وعنوانه صاح الشاويش :

ـ يا أبو العينين •• وديه الحجز على ما نعمل التحريات •



اقتاده أبو العينين الى غرفة الحجز وأثار دخوله موجـــة من الضحكات الساخرة ، وارتفعت الاصوات تنال منه • ونظر الى تلك المجموعة من البشر التى لا تعبأ بما هى فيـــه من متاعب ولا تخشى ما سيواجهها من مصير ، وشعر انه يتقزز من وجوده معهم فى مكان واحد ، لكن تقززه ما لبث آن اتجه الى نفسه هو • لقد أصبح يضيق بذاته ونفسه • انكمش على نفسه وانعزل بعيدا عنهم وأخذت المشاعر المتناقضة تأخذه فى كل اتجاه • شعر بارتياح لأن مخاوفه كانت على غير أساس فلم توجه اليه تهمة معينة يخشى على مستقبله منها • وعاد يتحسس جيوبه ولم يعد المال الذى يحمله دليل ادانة •وتبخرت كل مخاوفه لكنها تركت مكانها لمشاعر أخرى محطمة • ما هى تهمته ؟ لا يدرى • فقط انه لا يحمل بطاقة شخصية تثبت من هو • من هو ؟ •• سؤال جديد يسمعه لأول مرة • أخذ يستعيد كلمات الشاويش الجافة له ويتأمل • أهذه كل تهمته اذن ؟ شيء غريب •• الا يصدقه الشاويش الا بالبطاقة •• ؟ كأن البطاقة هى التى ستصنعه وستمتحه

وجوده واسمه ومكانته · بل لقد قال الشاويش هذا فعلا « لم لا تكون لصا ؟ » « لم لا يكون اسمك غير ما ذكرت ؟ » الى هـــذا الحد بلغ بالشاويش سوء الظن ·· لماذا يغير اسمه ؟ تغاضى عن كل ما سمعه من اهانة وشتائم وتسلطت عليه هذه الفكرة ، فاستغرق فيهـــا حتى لم يعد يسمع ما حوله من صياح وضجيج · ما اسمه ؟ فوزى عبد المجيد رسلان · هل فى هذا شك ؟ أمر محير وعجيب · لم يسأله واحد من قبل هذا السؤال · ولم يكن يظن مطلقا انه فى يوم ماسيواجه من يشككه فى اسمه ·· فى نفسه ·· تلك أول مرة يجد فيها اسمه منفصلا عن ذاته عن وجوده · وعلى الرغم من ان هذا السؤال لم يوجه له من قبل ولم يواجه به هو نفسه ، الا انه كان يدرك كأمر لايقبل الجدل أو النقاش ، ان اسمه جزء منه · من مكوناته · بل ان اسمه هو وجوده · فمن يشك اذن فى وجوده؟ كان يهيأ له ان اسمه مرسوم على كل ملامحه · على كل أعضائه · كان يخيل له أن أظافره وشعر رأسه وأصابع أطرافه · وملامح وجهه · بل وملابسه وعمله ·· تنطق جميعها باسمه فيعرفه الناس دون سؤال ·· « لم لا يكون لك اسم آخر ؟ » هذا أعجب ما فى الأمر · أبهذه السهولة يغير الناس أسماءهم ذلك شىء جديد عليه تماما · شىء لم يكن يدريه من قبل · فلم يخطر لذلك على باله · لكن الرجل لا يصدقه · يقول له لا أعرفك · حسن يلزم ان يعرفه الرجل حتى يصدقه ·· استسلم لهذا الامر فى يأس ·· انه الآن فى ورطة وعليه أن يخرج منها · لو كان ثمة من يعرفه لخرج من زمن · آه · ان أحدا لا يعرفه ، لذا فمن الممكن أن يكون لصا ·· أن يكون أى شىء ، أو لا يكون شيئا على الاطلاق ·· لو أن أحدا يعرفه هنا لقال لهم أخرجوه فانه حقيقة فوزى عبد المجيد رسلان كاتب الجمعية الزراعية بكفر سالم منوفية ·· سيصدقون ويطلقون سراحه ·· بل لو قال لهم عنه انه أكبر من ذلك أو أقل لكان كمـــا قال·· من يعرفه هنا لينقذه؟ عليه أن ينتظر حتى يحضر عمه ·· متى

سيحضر وينتهي هذا العذاب ؟ لو ان البطاقة لم نضع لما كانت هذه الفضيحة ·· نعم فضيحة ·· ماذا سيقول عمه ؟ بل ماذا سيقول الناس ؟ هل فى شكله ما يبعث على الريبة فالتقطه رجل البوليس من دون المارة جميعا ؟ سيظن عمه انه أساء سلوكه والا فلم قبض عليه ؟ وبدأ يضيق بذاته · ان فى مظهره بالتأكيد ما يبعث على الشك · ماذا فى مظهره بالضبط يعطى هذا الاحساس ؟ ملابسه التى كان يظن نفسه سيغزو بها القاهرة فاذا بها خشنة يعلوها التراب ·· ؟ أم خلقته نفسها ؟ يا الهى · لم خلقتنى على هـــذه الصورة ؟ آه ·· البطاقة كانت ستجنبه كل هذه الفضيحة وتريحه من هذ العذاب · كان على الاقل لن يدرك هذه الحقيقة الرهيبة ·· البطاقة قادرة على كل هذا ؟ من كان يظن ؟ كم سخر عندما طلب اليه أن يستخرج بطاقة كان الأمر بالنسبة له غير مفهـــوم على الاطلاق · ما جدواها ؟ لم يجد واحدا فى القرية يمكن أن يجيب على هذا السؤال اجابة شافية ولقد سخر من رئيس الجمعية عندما قال ان القصد منها سهولة اثبات الشخصية · ما معنى هذا ؟ وضحك يومها فى عجب من هذا القول · ما معنى أن يحرر ورقة يكتب فيها اسمه ومهنته وموطن ميلاده ·· ثم يلصق صورة له ·· صورة مشوهة تطمس معالمه الحقيقية وتبـــرز أسوأ ما فى وجهه من عيوب ؟ لماذا كل هذا ؟ ليعرفه الناس · ومن من الناس هناك لا يعرفه ؟ ·· ويتذكر فوزى كيف ظل مدة طويلة يعارض فى أن يستخرج هذه البطاقة رغم كل ما قيل عن الســـجن والغرامة لمن لا يحملها ·· كان يقول لمن حوله ســـــاخرا « الحكومة الظاهر عاوزة تغرمنا قرشين » ويرد محدثه هنـــاك : « أهى أرزاق يا فوزى أفندى··أمال المصوراتية ياكلوا عيالهم · » ·· لولا نصيحة الكثيرين له·· ولولا تحذيرهم بأنه سيغرم جنيهين وقد يسجن ، ما حررها ، فقد وجد أخيرا أن غرامة بضعة قروش أهون من غرامة جنيهين ، وسيخرجها مع ذلك آخر الأمر شاء أم لم يشأ·· ولقد ظلت

ـمنذ أن استخرجهاـ فى جيبه يضيق بها ويحملها بعد أن أضافت الى جيوبه المنتفخة عبئا جديدا٠٠٠لم يطلب اليه مرة واحدة أن يستعملها منذ أربعة أعوام، فظلت فى مكانها فى جيبه بلا معنى ولا فائدة ٠٠٠ مجرد قطعة من الورق « المدشوت » تثقل كاهل جيبه ٠٠ يا لسوء الحظ ٠٠ عندما تطلب منه لأول مرة فى حياته يجدها قد ضاعت « ليست هى التى ضاعت ، ولكن أنا ٠٠٠ لعنة الله على النشالين جميعا ٠٠٠ كان محقا اذن فى تخوفه وحرصه منهم منذ جاء ، ولكن كيف تسللوا الى جيبه الداخلى ؟؟ ونظر اليهم يود أن يفتك بهم جميعا فها هم معه فى غرفة واحدة ، لكنه عندما التفت اليهم فوجىء بهم يغادرونها بناء على أمر لا يدرى مصدره ٠٠٠ ثم وجد نفسه آخر الأمر وحيدا فى الغرفة ، ووقع بصره على المخبر أبو العينين ٠ كان يمقته من كل قلبه ، لكنه كظم حقده وناداه مستعطفا :

ـ شاويش أبو العينين ٠

ـ أنت لسه هنا ؟

ـ أيوه ٠ والنبى تعمل معروف ٠ خليهم يسيبونى ٠

ـ مش ممكن ٠ لازم حد يضمنك ٠ انت ماتعرفش حد هنا ؟

ـ أبدا ٠ مفيش غير عمى اللى فى شبرا ٠

ـ ياه ٠ دا على ما ييجى قسم الموسكى يا ابنى يكون فات يوم ٠

وأخذه الهلع :

ـ اعمل معروف ياشاويش ٠ أنا غريب ٠ زمانهم قلقانين على ٠

ويبدو أن استجداءه وجد صداه فى نفس محدثه :

ـ اسمع يا ابنى ٠٠

« يا ابنى ؟ » ان للرجل أيضا مشاعر أبوية · من يصدق ؟

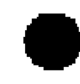
استمر الرجل فى حديثه :

ـ حنادى لك واحد شيخ حارة يضمنك · بس تكون مفتح معاه ·

ـ وتطلعونى ؟؟

ـ على طول ··

ـ ربنا يخليك ياشاويش أبو العينين ·



انصرف الرجل وأخذ هو يعد اللحظات فى لهفة ونفاد صبر واختفى حقده تماما على الشاويش أبو العينين الذى مالبث أن عاد بصحبة رجل آخر لا يلبس زى الشرطة :

ـ أهو ده ياشحاته ··

وتوجه الرجل بالحديث اليه :

ـ انت فوزى ؟

ـ أيوه ··

قالها باضطراب وخوف أن يرفض الرجل مساعدته ·

ـ دا باين عليه طيب قـوى يا أبو العينين · بقى ماتجيبوش الا ده ؟

ـ معلهش · أصل كان كلمنى كلمتين غاظونى ··

وعاد الرجل يحدثه :

ـ وما عملتش بطاقة ليه ؟

وشعر بالخوف والطمأنينة في وقت واحد :

ـ والله كانت معايا وانسرقت منى فى الزحمة ..

ـ كنت اعمل بلاغ عنها لأقرب قسم ..

ـ ما أعرفش الاجراءات دى ..

ـ انت ياك مش من هنا ؟

ـ لا .

وصحباه الى ضابط البوليس ، ووقف هو بباب الحجرة خائفا مضطربا فهو يدرك أن على هذه المقابلة سيتقرر ما اذا كان سيطلق سراحه أم يظل سجينا . سمع شيخ الحارة يقول :

ـ الافندى ده فى ضمانتى ياحضرة الظابط ..

ـ تعرفه ؟

ـ الا أعرفه ؟.. تصدق بايه لو قلت لك دا قريبنا ..

وابتسم الضابط فى سخرية :

ـ طبعا المسلمين كلها اخوات وقرايب ياشيخ شحاته ..

وضحك الرجل وهو يغمز بعينيه :

ـ وانت تعرف انى أقول غير الجد ؟ طيب دى حتى مسئولية كبيرة . وحضرتك عارف .

وقال الضابط كلاما له مغزاه :

ـ طبعا عارف . الا دى . طب اسمه ايه ؟

ـ فوزى عبد الحميد رسلان .

ـ فوزى عبد الحميد ولا عبد المجيد ياشيخ شحاته ؟•

ـ ياسيدى فرقها بسيط ••

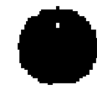
قال ذلك بلهجة تجارية ضحك منها الضابط فقال :

ـ ياراجل توب لك يومين بقى ••

فواصل الرجل حديثه بنفس اللهجة :

ـ بذمتك دا مش باين عليه غلبـــان ؟ بقى ده وش سجن ؟ طب على الطلاق باين عليه عمره مادخل قسم قبل كده ••

ـ طب تعالى امضى يا خويا بلاش لمـاضه ••



لم يصدق فوزى انه أخلى سبيله الا عندما غادر مبنى القسم • وتنسم هواء الشارع فى لذة ونشوة • وتوجه الى شيخ الحارة يشكره بحرارة :

ـ متشكر قوى يا أستاذ •• أنا مش حانسى جميلك أبدا •• متشكر خالص ••

ـ والله لولا انك ابن حلال •• ماهانش على تبـــات ليلة فى القسم• وادى انت شفت الظابط قال ايه•• لكن آدى احنا هنا لخدمة الجمهور •• والناس برضه عندها نظر ••

ونظر اليه نظرة تقول « ألم تفهم بعد ؟ » لـكن يبدو أن فوزى بطىء الفهم فلم يجد الرجل بدا من أن يتكلم بصراحة :

ـ مانستاهلش منك بقى يا عم كباية شاى ؟

ـ يا سلام على أى قهوة تعجبك ••

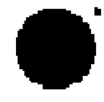
ـ متشكر •• بس أنا مستعجل ••

وفهم أخيرا ٠٠ ومنحه ورقة من فئة ربع الجنيه :

ـ ايه ده ياعم ؟ هو أنا بشحت والا ايه ؟؟

وأعطاه ورقة آخرى من فئة العشرة قروش ٠

ـ طب مع السلامة بقى ٠٠ خلى بالك من نفسك ٠٠



سار في الشارع لا يصدق أنه عاد حرا ، ووجد الشوارع قد ازدادت حركة ونشاطا فبدت أشد اغراء من لحظة قدومه ٠ ووقف يتأمل المعالم المحيطة به في ذهول ٠٠ كانت الأضواء ولافتات النيون الملونة ، والحركة الصاخبة وتماثيل الميدان ونافوراته ، والعمارات الشامخة على جوانبه والناس اللامعون ٠٠ كان كل ذلك يكاد يخلب لبه ، وهم أن يستجيب لاغرائها لولا آن شيئا من أعماقه قد رده الى صوابه فأدار ظهره في حسرة لكل ما يرى ، وأصم أذنيه عن كل ما يسمع وتوجه الى أقرب شرطى وسأله عن كيفية العودة الى شبرا ٠ ووصف له الرجل الطريق فى اهتمام وشهامة عجب منهما وسر رغم كل شيء ، ربما لأنه اكتشف آن هيئته لا تبعث على الشك ٠ لكن المأساة عادت تتمثل له بأبشع مما كان فاتخذ طريقه الى محطة الأتوبيس ووقف فى هذه المرة ينتظر أتوبيسا معينا ٠٠

١٩٦٣

أوراق الخريف



هبت نسمة من نسمات سبتمبر فزحزحت كابوس الحر الذى جثم على المدينة طوال النهار • بدأت الحركة تدب فى فروع الأشجار شبه العارية ، وفى الوريقات القليلة التى مازالت تتشبث فى استماتة بفروعها • وتحركت بعض الأوراق والنفايات الملقاة على رصيف المقهى حركة قصيرة فى أزيز خافت أشبه بالأنين • تنفس الجالسون على المقهى ملء رئاتهم ، وشيئا فشيئا بدأت المناقشات تدور بين القلائل الجالسين ، الذين بدوا وكأن ثقل كابوس الحر كان قد أغلق أفواههم •

هتف واحد من الجالسين وسط مجموعة :

ـ رؤساؤنا ؟ يا سيدى ! البلية منهم • أولى بهم أن يوضعوا فى متحف •

ـ حقا • عقليات عتيقة • يجب أن تفسح لنا الطريق •

ـ يا رجال •• بعد كل خدماتهم تلك ؟

عاد الشاب الأول يقول فى حدة :

ـ آية خدمات أدوها ؟ !

وأشاح رجل مسن ، كان يجلس قريبا منهم ـ بوجهه عن المجموعة التى جذبته مناقشاتها فترة • تنهد وقال لنفسه ـ حمداً لله •• افعلوا ما تريدون •• أخلينا الجو لكم ••

ألقى بنظره فى الاتجاه المضاد • حملق فى حركة السيارات ومركبات الترام •• لم تكن نظراته مركزة على شىء بالذات •• ففقدت الموجودات والأشياء وجودها الملموس أمام ناظره وأصبحت أشبه

بالطيف •• ونظر فى ساعته ، ثم عاد ليلقى الى المتناقشين الشبان نظرات طويلة ، وخيل اليه أن واحدا منهم ـ ذلك الذى يحمل مشاعر عطف نحو رؤسائه ـ قد طلب اليهم أن يكفوا عن النقاش ، أو على الأقل أن يخفضوا من أصواتهم بعـــد أن ألقى بنظراته اليه • وتأكد الرجل من صحة ظنونه حين وجد واحدا أو اثنين منهم يلتفتان نحوه• عاد يبحث عن شيء ينظر اليه ••

وبدأ يتأمل كوبة المـاء نصف الفارغة ، وفنجان القهوة الذى انتهى منه من زمن ، والذى غرق فى قاعه عديد من أعقاب السجاير • وامتدت يد تحمل الاكواب الفارغة • وتنظف المائدة التى يتكىء عليها •• هم بأن يقول للجرسون ابقها لـكنه لم يفعل ، وهم أيضا بأن يسأله عن صديقه مسعود لـكنه تذكر أنه سأل عنه ثلاث مرات من قبل • هذه الذاكرة اللعينة ! يبدو ألا شيء فى جسده قد عاد يصلح ، فما الذى لا يشكو منه ؟ وتذكر فى هذه اللحظة أن عليـه أن يبتلع بعض أقراص الدواء ، وشعر على الفور بأن أنفاسه تتهدج ، بل بأنه يلهث • طلب كوبة ماء وفنجانا رابعا من القهوة ، آثر أن يحتفظ به أطول مدة ، لا لشيء الا ليشعر بشيء الى جواره ، وصرف كل همه فى تأمل البخار المتصاعد من الفنجان وهو يتلاشى فى الهواء ، وعاد ينظر فى كل إتجاه وتكررت نظراته الى ساعتـه ، لـكن الشـوارع ظلت صامتة لا تود أن تبوح بسر تأخر صديقه ولا بموعد مجيئه • ازداد شعوره بالوحدة وتنبه الى أن الأماكن من حوله قد شـــغلت ، وحام الجرسون حوله مرات ، لكن الحيلة التى لجأ اليها أفلحت وبقى الفنجان أمامه •

احتدمت المناقشات من حوله • ولفت نظره على الأخص واحد من مشجعى الـكرة يسب لاعبى ناديه :

ـ عجزوا • يجب أن يحالوا الى المعاش •

ـ لا يا سيدى • يأخذون زمنهم وزمن غيرهم •

ـ شيء أصبح •••

ولم يعد يسمع شيئا • أشاح بسمعه ونظراته عن المتناقشين ، وخيل له أن وجوده نفسه قد أصبح جريمة • ارتجفت أطرافه ، وجحظت عيناه ، وظل لمدة لا يطيق جفونه ، وارتفع طنين فى أعماقه ، ووجد الدنيا تدور به • وتأمل أشعة الشمس التى أصبحت باهتة • فقدت حرارتها •• وشعر أن نسمات العصر باردة ، فأحكم اقفال جاكتته حوله •• وتمنى لو كان قد لبس معطفه ـ لكن كان الجو حارا عند مجيئه الى المقهى بعد صلاة الجمعة • يبدو ان مسعودا لن يأتى • الجرسون يرمق الفنجان كلما مر • بل لعله يكثر الحوم حوله من أجل هذا وربما ـ لولا الحياء ـ لطلب اليه أن يشرب لينتهى الأمر • لو كان أحد بالبيت لما جلس هكذا • هز رأسه • ترى ماذا كان سيفعل بأيامه لو لم يكن مسعود ؟ هو الوحيد الذى بقى له من كل أصدقائه• الباقون ، منهم من مات ، ومنهم من عاد الى قريته • ضاق بنظرات الجرسون :

ـ ليس لديكم الا هذا الفنجان ؟

ـ ماذا يا « بك » ؟ •

ـ لماذا تنظر اليه هكذا ؟ خذه ان أردت •• نحن نشرب على مزاجنا ••

آثر الجرسون السلامة ورفع يديه الى السماء « لا حول ولا قوة الا بالله » • يظننى مجنونا هذا الهلفوت •• لا يليق خادما لأقل ساع كان يخدمه فى الوزارة •• ضاق بالمكان • لكن لم تكن به رغبة للعودة الى منزله •• لابد أن مسعودا قد بدأ يجهز لابنته • وتصور مسعودا محاطا بأولاده وزوجته ، لم يمض فى الصورة لأبعد من هذا ،

فذلك فى حد ذاته يكفى • ازداد شـــعوره بالبـرد • وتأمـل لابسى القمصان الصيفية الذين يملئون المكـان من حوله• يود لو يدخل الى المقهى هربا من البرد • لكن ما من أحد بداخلها • ظل كما هو •

ـ الزواج ! اياك • عذاب فى عذاب •

ـ بينى وبينك ، أنا أترحم على كل من يتزوج •

ـ معكما • لـكنه كالموت • لا مفر منه •

ـ تستطيع أن تفر لو شئت •

ـ على كل ، لقد قررت •• هناك متاعب بالفعل •• لكن ضحكة طفلك تنسيك كل شىء •

ـ هـراء •

ـ أنت لم تجرب •

ـ الزوج كالنحل • يصنع العسل لغيره •

ـ وفى هذا متعة •

ـ عجبـا •

قال أول الثلاثة بثورة :

ـ ليـكن • لـكن قل لى • زواج مع هذا الدخل المحدود ؟ •• يا شـيخ !

وضع الرجل يده على خده ، واستمر يستمع الى النقاش الدائر هم بأن يتدخل فى الحديث •• أكثر من مرة ، لـكنه شعر أنه غريب عليهم • غريب • ومع أن الذاكرة قد نسيت الـكثير من أحداث حياته الا أنه يذكر ـ لا يمكن أن ينسى ـ أنه كان يردد آراء الشابين ضد

الزواج • وتذكر أمه التي ماتت وهو في الخامسة والأربعين ، وأخته التي تزوجت في احدى قرى الصعيد ، وأخاه الذي رباه حتى أكمل تعليمه ثم آثر أن يعمل بالاسكندرية بعد أن تزوج • وهز رأسه •• المسئوليات ؟ !

أسند رأسه بكفه ، وعادت صور من حياته الماضية مهتزة ، برزت من بينها صورة ساعي مكتبه وهو يشكو له متاعب الحياة ، والمصاريف اللازمة لابنه في كلية الهندسة ، بالتأكيد ، صار الآن مهندسا • وضحك من نفسه ومن تعللاته ضد الزواج •

ـ اسمع يا سيدي • بعد الزواج تصبح بقرة • لبنها دائما للآخرين •

ـ رأيت (كامل) بالأمس • كان شاحبا مرتبكا • كان عائدا بابنه من عند الطبيب ••

ـ يا عم •• ألا نعيش لأنفسنا يوما ؟ نعيش دوما للآخرين ؟••

هز الرجل رأسه ، وخيل له أنه هو الذي يتحدث الى مسعود ، يوم أن زاره في مكتبه مفاتحا اياه في عزمه على الزواج • لماذا لم يقتنع بالأمر كله ؟ كان وقتها فتيا يظن الشباب لا نهاية له •• لماذا لا يندم المرء الا بعد فوات الأوان ؟ لو كان يعلم أنه سيئول الى هذا المصير ؟ هنيئا لك يا مسعود •• وتأمل قرص الشمس الغارب ، لم تعد الأضواء المنبعثة منه من القوة بحيث تؤذي عينيه •• وازدادت النسمات هبوبا • وخيل له أن مسامير رفيعة بدأت تتسرب من جلده وعظامه • وزاد من جذب ملابسه فوق جسده، وعبثا يبحث عن طريقة أحسن يتدثر بها • وفجأة اصطدمت يده بالمائدة فانكفأت ، وانقلب الفنجان الذي لم يرشف منه رشفة واحدة ، وأكثر من هذا تفتت الفنجان نفسه الى شظايا •• وجاء الجرسون على الضجة ، وجمع بقايا

الفنجان دون أن يقول كلمة واحدة · لكن التعبيرات فوق وجهه كانت أقسى من كل كلام ·

وفوجىء الرجل بواحد يمسح بمنديله بقع البن من فوق بنطلونه ·

ــ العفو يا ممدوح ·

ــ خيرك علينا يا « بك » ·

انتعش عند سماع الكلمة · قدم اليه ممدوح صديقه :

ــ الأستاذ مصطفى · موظف بالحسابات · جاء بعد سيادتكم ·

ثم اتجه الى صديقه :

ــ على بك المسيرى ·· مديرنا السابق ·· بالمعاش ·

أحنى الشاب رأسه بحركة آلية لا اهتمام فيها ·

ــ كانت أيامك خيرا ، ليتها تعود ·

احتار الرجل فى ممدوح · أهو حقا قد نسى شدته عليه فجاءه بنية صافية ، أم مازال على أسلوبه الهادىء الماكر ؟ على كل ، أراحه الشابان وانسحبا سريعا ، والتقطت أذنه الحادة قول ممدوح لزميله :

ــ ترى ، ماذا سيكون وضعنا فى قانون الموظفين الجديد ؟

استعد الرجل للقيام وأصوات المتناقشين تصل اليه من كل من حوله مختلطة بعضها ببعض :

ــ لا خير للنادى ان لم يفسح المجال للأشبال · سينتهى بالتأكيد ·

ــ أين الطاولة التى طلبناها من زمن ؟

ـ بالله لا تحدثني عن الزواج • لا أريد أن أتحمل مسئولية غيري •

ـ ورق يانصيب •

ـ وسيمنح الموظف علاوة كل سنة ، بدلا من كل سنتين •

كان قد أخرج النقود من جيبه بالفعل ليدفع الحساب ، لولا أنه فوجيء بمسعود يجلس قبالته دون أن يلقي سلاما • كانت أنفاسه متهدجة ، ووجهه أحمر اللون ، ونظراته تبدي غضبه وثورته ، نظر اليه صديقه مستفسرا • قال مسعود وهو يلهث :

ـ والله يا علي •• انى أحسدك •

نظر اليه الرجل ، وعاد يجلس ليعيره كل انتباه •

ـ يا سلام • أنا مخطيء وابن كلب • نعم مخطيء وابن كلب •• حياتي هذه خطأ في خطأ •• ليتني أطعتك ••

ـ ماذا يا مسعود ؟

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ لا شيء يا سيدي • لا شيء • أنت تعرف محمدا •• ابني الكبير • ما ان تخرج من الطب حتى تزوج • ثم ماذا ؟ لابد أن يعيش مستقلا • هذه ارادة زوجته ياسيدي •• محمد • محمد •• لا يرضى أن يساعدني على مصاريف اخوته ••

هز صديقه رأسه وقال :

ـ قصة قديمة يا مسعود •

لم يبد على مسعود أنه سمعه ، وواصل حديثه الغاضب :

ـ والبنت •• البنت « المفعوصة » •• سن ١٨ •• تريد كل

شيء في منزلها الجديد ٠٠ لا أحد يرحم يا على ٠٠ لا أحـد يرحم ٠٠ لمـاذا كان وجع الدماغ هذا ؟ ٠٠ انني أحسدك ٠٠ أحسدك ٠٠

صمت صديقه تماما ٠٠ وظل ينظر اليـه دون كلمة ٠٠ حاول مسعود أن يهدىء من صوته ، لـكن صوته مع ذلك كان من العلو ، بحيث كاد يسمعه الجميع :

ـ ماذا أقول ؟ لو تكلمت يقولون مجنون ٠٠ عجوز يخرف ٠٠ تصور ٠٠

واشتد هياجه :

٠٠٠ خطيب البنت الرقيع يعابثهـا وأنا موجود ٠٠ تقول له انتظر حتى يخرج أبى ، فيقول لها « ولا يهمك » ٠٠ رأيت قلة الحياء ؟ لو بيدى لطردته ٠٠ لـكن حماته يا سيدى ـ زوجتى ٠٠

ـ هدىء نفسك يا مسعود ٠

قالها صديقه بصعوبة ، فقد كاد صوته يحتبس ٠

ـ أهدىء نفسى ؟ أنا غريب وسطهم ٠٠ ليس البيت بيتى ٠٠ ليتنى سمعت كلامك ٠٠ ماذا نأخذ منهم ؟٠٠ يا رجل ٠٠ لو أمكنهم أن يبيعونا ليحصلوا على مال لفعلوا ٠ تنظر الى ؟ تكذبنى ٠ لاتصدق ؟ أنت لم تجرب هؤلاء الملاعين ٠ لم تجرب ٠

ثم صاح :

ـ سمعتها بأذنى يا على ٠

أسند الصديق رأسه بكفيه ، وظل يحملق فى صاحبه ٠

ـ سمير ٠٠ سمير الصغير ٠ هو الآخر يحب يا سيدى ٠٠ قلت له انتبه لدروسك ولا فائدة ٠ كان اليوم يتشاجر مع أمه ٠٠ قالت له أبوك غاضب عليك ٠٠ تدرى ماذا قال ؟ ٠٠ وماذا لو غضب ؟ ٠٠

ليبحث له عن ميتة ·· أنا يا على ·· أبوه · يجب أن :موت، لماذا !! لأن كلامى قد كثر منذ أحلت الى المعاش ··

انتظر أن يقول صاحبه شيئا ، لكنه لم يفتح شفتيه بحرف ·

ـ لماذا لا ترد ؟ وأمه ·· زوجتي ·· ماذا أقول ؟ ترى هذا القميص ·· نسيت يا سيدى أن ترسله الى الكواء ·· نسيت أن ترسله مع ملابس أولادها وخطيب بنتها نسيت يا على ··

بقى صديقه مدة لا يجد مايقوله ، وظل مسعود يحملق فيه ، ينتظر ولو كلمة واحدة · لكن ، لكأنما الكلام كان قد مات ·· وبعد مدة طالت ·· خرج صوته محشرجا ، واهنا ، لا يكاد يسمع :

ـ اسمع · هدىء نفسك ·· الأحسن أن نلعب طاولة ·

لم يمانع مسعود . واستسلم لمشيئة صديقه ، لكنه لم يطلب منه ككل مرة ألا « يقرص » على الزهر ، وسرعان ما استغرقا فى اللعب .. ولفهما الصمت . صمت ثقيل لا تقطعه الا رميات الزهر ، الذى كان كل منهما يلقيه كيفما اتفق ··

وفجأة ، انقلبت نسمات الخريف ريحا مدومة ، صفقت النوافذ ، وغلقت الأبواب ، وأسقطت الكثير من الوريقات المتشبثة باستماتة فى فروعها ، واهتزت الأفرع العارية اهتزازا عنيفا ، وجرفت العاصفة أمامها وريقات الشجر الصفراء ونفايات الورق الملقى فى الشارع وأعقاب السجاير ، والعلب الفارغة ، فى خليط عجيب ، صفعت به وجوه الجالسين أمام المقهى ، الذين انحنوا لها كأعواد القمح الهشة ، وظلوا منكفئين هكذا ، وتوقفت كل الأحاديث التى كانت تدور حول كل شىء ..

وبعـد قليل ، انتهت العـاصفة ، وعاد الجو رائقا صافيا ، وبدت الشوارع نظيفة لامعة ، وعادت الحركة تدب فيها فى نشاط، وعاد الهاربون من العاصـفة من داخل المقهى ليشغلوا أماكنهم . وتهيأ الجميع ليعودوا الى ما كانوا فيه ، لولا أن لمحوا فتى وسيما تتعلق بذراعه فتاة .. كانا يتخذان في خطوات رشيقة ـ طريقهما فى الشارع ، بنفس الاتجاه الذى اتخذته العاصفة منذ قليل ، وركز المدير السابق وزميله نظراتهما على الفتاة .. وكف الجميع حتى عن التنفس .. فقد كانت الفتاة بالفعل جميلة .. جميلة ، حتى ليبدو ، وكأن العاصفة قد هبت خصيصا لتكنس لهـا الطريق ..

١٩٦٤

النور الأحمر

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة وكل ما فى المصلحة الكبيرة يسير سيره المعهود ، السعاة بالأبواب متيقظون لأى نداء ، يتحركون بالأوراق من مكتب لآخر ، خطواتهم سريعـــة ؛ ردودهم مقتضبة :

ــ حاضر ، نعم ..

ثم يهرولون الى « البوفيه » ليوصوا على المزيد من طلبات الشاى والقهوة التى لا يكف الموظفون عن عبها طوال اليوم ..

وفى حجرة الحسابات ، أطرق (صابر) ســاهما وأمامه فنجان قهوته الرابع . أشعل سيجارة .. ثم اكتشف أن ثمة سيجارة أخرى مشتعلة لم ينته منها بعد . تنهد :

ــ مالك يا صابر ؟

رد على زميله بصوت هامس يزفر :

ــ لا شيء .

ــ تحمل . أنت تعرف . لا أحد هنا يمكنه أن يقول لا ..

نظر صابر الى لا شيء .. لاحت فى مخيلته صورة مرزوق أفندى سكرتير المدير وزميله ــ هو ــ السابق .. كز على أسنانه وبان الامتعاض على ملامحه . هز رأسه عدة مرات ثم غمغم يقــول لمحدثه بصوت يأتى من بعيد :

ــ نعم نعم

صاح رئيس الحجرة :

ـ لا داعى للكلام الفارغ . اشتغلوا .

رمقه (صابر) بنظرة نارية . أمسك بأحد الملفات فى عصبية، وكاد الغضب أن يدفعه لحركة جنون ، لكنه تمالك نفسه وعاود العمل ..

قال رئيس الحجرة بعد صمت قصير ، موجها حديثه للجميع ، كأنما يعتذر :

ـ يا « اخوانا » . انتم تعرفون المدير ..

حل الصمت فى الحجرة من جديد فلم يعد يسمع بها الا حفيف الأوراق ودقات الآلات الكاتبة والحاسبة تتخللها انفاس الموظفين وتنهداتهم . ولم يكن الحال بالحجرة المجاورة ليختلف كثيرا . فالعمل هناك مستمر فى صمت . ولا شىء يربط الموظفين بعالم الحياة الا أنفاسهم ، وتنهداتهم ، ونفثات الدخان الكثيف العابق بالحجرة ، ورشفات المشروبات التى لا تكاد تنقطع . وعندما تاق اللسان ليؤدى وظيفته ولو همسا ، صاح رئيس الحجرة :

ـ وبعد ؟ أنتم تعرفون المدير .

ـ أين هو منا ؟ نحن بعيدون عنه .

رد رئيس الحجرة محنقا :

ـ أنت الذى لا تعرف شيئا أو انك تتغابى .

عاد الموظف يقول فى عناد :

ـ ثم انه مشغول ، في لجنة ..

ـ ولو !

نبت الحديث من هنا وهناك ..

ـ حذاؤه ذو النعل « الكريب » جعله فوق رأسنا جميعا .
ـ وفى أى وقت ..

أكد رئيس الحجرة حديث مرءوسيه :

ـ فوجئوا به فى الارشيف فى العام الماضى واقفا بينهم ، ويومها كان ما تعرفون ..

كف اللسان عن لغوه وعادت الأشياء تتحدث ، وغرق الموظفون فى أعمالهم ، لكنهم سمعوا حركة أقدام مباغتة فتعلقت أبصارهم بالباب ودقت قلوبهم ، ثم سرعان ما التقطوا أنفاسهم .. وأخذوا يسبون صبى البوفيه بكلمات جارحة .

وساد الصمت من جديد ..

بعد قليل سمع صياح غاضب يأتى من الجناح المقابل :

ـ انتم لا تخافون الله .. راعوا ضمائركم ..

ـ ماذا هناك !

احتد رئيس السعاة :

ـ ماذا هناك ؟! لو شاهد المدير (وخفض من صوته وبدا يحاول التحكم فى غضبه) .

الكلمة المكتوبة على هذا الحائط . ماذا سيحدث لى ؟

نظر الساعى الى الكلمة بدهشة :

ـ لكنى مسحت عشرات الكلمات هنا منذ قليل ..

ـ أنت أعمى . عماك سيذهب بنا الى الجحيم ، أسرع وامسحها ، وهذه الطرقة ؟

ترى هذا التراب ؟ لا تصلحون لشيء . حرام والله ان عينتكم الحكومة . تظنونها « وكالة » ؟ يا أ ..

ــ ماذا ياريس ؟

تمالك الرجل نفسه برغم المفاجأة . قال وهو يغتصب الابتسام :

ــ لا أبدا يا استاذ مرزوق . لا شيء وشرف مرزوق أفندى لا شيء .

ــ صوتك مسموع تحت .. المدير فى لجنة ولا يريد اى صوت .

أخذ الرجل . هل سمع صوته هناك .

ــ حاضر ..

ــ خذ ، وزع هذه الأوراق . تعليمات المدير بنظم العمل الجديد . كل موظف يوقع بالعلم ، والموافقة ، والتنفيذ ..

عاد سكرتير المدير متجها الى حيث حجرته ، رنا ببصره نحو حجرة الحسابات . « هذا العنيد ! حسن . سنرى ! » وباحت شفتاه بابتسامة صفراء وهز رأسه ، ومضى فى طريقه يبتسم لنفسه . وتنهد رئيس السعاة فى ارتياح ، وحمد الله أن عين مرزوق أفندى لم تقع على الكلمة الوقحة ، التى لا يكف عن كتابتها « عابث لا رجولة فيه » .

همس السعاة فى الحجرات :

ــ سكرتير المدير . مرزوق أفندى يمر ..

زاد توتر الأعصاب . صاح رئيس حجرة ثالثة :

ــ خطأ جسيم . سأكتب مذكرة . لا بد ..

ـ لا داعى للأذى ياريس . كلنا عرضة للخطأ ..

ـ بعد كل هذه المراجعة ؟ انتم تلعبون ..

ـ يرضيك أذانا ؟

ـ ويرضيكم أذاى أنا ؟ أنا المسئول أولا وأخيرا ..

ونظر الى الباب ثم أضاف :

ـ .. لا تعرفون كيف يكون موقفنا أمامه ..

ـ مضت على خير ..

ـ مضت على خير ؟! ها ! السنة الماضية تساهلت مع زميل هنا . دريتم بالطبع بما حدث (ثم رفع صوته) في أقل من ربع ساعة استدعانى المدير وواجهنى بكل شيء .

ثم ازدادت حدته بعد أن نظر من جديد الى الباب :

ـ من أبلغه ان لم يكن واحدا منكم ؟

ـ نحن ؟ معاذ الله !

ـ انتم جنيتم على أنفسكم ..

وصمت قليلا ثم صاح :

ـ تظنونه لن يدرى ؟ المدير هنا وسطكم .. موجود بينكم .. أقول هذا ولا أخشى شيئا . أنا ..

دخل ساعى القلم فكف الرئيس عن صياحه وتشاغل الباقون بالعمل . اختلسوا النظرات الطويلة الى الساعى . قال الموظف صاحب الخطأ بيأس ونفاد صبر :

ـ هه ! افعل ما بدالك ..

ـ الاستاذ مرزوق ابتعد ..

قالها الساعى وخرج . رطبت نسمة وجه رئيس الحجرة المبتل بالعرق فقال على غير ما كان منتظرا :

ـ سماح . هذه آخر مرة ..

وخيم الصمت من جديد على كل الحجرات . وظل سؤال واحد يجول بخاطر رؤساء الأقلام جميعا . الضوء الأحمر مشتعل فى حجرة المدير منذ أيام . يقال هناك لجنة من الوزارة . ترى ماذا سيحدث ؟ تذكر رئيس حجرة أخرى أياديه السابقة على مرزوق أفندى فترك الحجرة وجرى خلفه يناديه .

ـ مرزوق أفندى ، يا أستاذ مرزوق ، من فضلك كلمة ..

أطرق مرزوق أفندى للسؤال عن لجنة الوزارة . قال باقتضاب :

ـ لا أدرى شيئا عن الموضوع . أنتم تعرفون المدير ..

استوعبه الرجل بنظرة تقول : « نحن نعرف بعضنا ولا داعى لذلك » ابتسم وقال ملاطفا :

ـ لكن .. البركة فيك مع ذلك يا استاذ مرزوق ..

ـ أنا ؟

وهز كتفيه وأبدى بحركة من يده قلة حيلته ..

ـ أنا مجرد سكرتير . « حتة » سكرتير ..

وانصرف . ظل الرجل يرمقه فى غيظ . تمتم فى سخط :

ـ رحم الله أيام « الحسابات » .. دنيا !

وعاد الى حجرته .. وعبثا يحاول أن يعثر لكرسيه على وضع مريح . ضاق بنظرة طويلة يوجهها اليه موظف نحيل ضيق العينين، فشخط فى موظف آخر :

ـ انت يا نايم .. هنا مكان عمل . ناموا فى بيوتكم ..

أمن الموظف ذو العينين الضيقتين على حديث رئيسه بكلمة لها مغزاها :

ـ انتبهوا . المدير فى لجنة ..

احتدت لهجة رئيس القلم :

ـ ولو .. نحن نعمل واجبنا ولا نخشى أحدا ..

ارتسمت لابتسامات على كل الشفاه . أطل موظف آخر فجأة من النافذة وقال وهو يرمق الموظف الضيق العينين :

ـ اطمئنوا . عربة المدير ليست هنا ..

وجد رئيس الحجرة نفسه يطل من النافذة ، عاد مفتوح الفم، لكن الموظف الضيق العينين قال بخبث شديد :

ـ ياعم . كثيرا ما يصرف سيارته .

ـ فى أحيان أخرى يأتى بتاكسى .

ـ عشرون عاما فى الحكومة ما رأيت أفظع منه . تصوروا . ينقل حجرته للدور الأرضى ليرقب بنفسه كل شىء .

رفع موظف آخر رأسه من فوق الأوراق ..

ـ تصدقون بالله ؟ رأيته فى المنام أكثر من مرة • آخـرها أمس •

أفاق رئيس الحجرة فهتف فى ضيق :

ـ وبعد ؟ كونوا في عملكم . مديركم رجل جاد . والله لن يعوض •

وعاد يفكر فى اللجنة الملعونة . وعاد الصمت يسود ، لايقطعه الا همس يتدرج خفوته من طابق لآخر حتى يستحيل تماما فى الطابق الأرضى عند حجرة المدير • كل شىء هناك صامت يوحى بخطورة المنطقة ، الأجسام المحيطة بباب الحجرة فارغة ، والتجهم سمة الوجوه ، لم يصدق رئيس حجرة الأرشيف نفسه وهو يسمع « طراطيش » كلام خافت وشبه ضحكة . تعلقت نظراته بساعى حجرة المدير ونصف جسده مختف فى حجرة السكرتير • لكن الساعى تنبه على الصوت النشاز الصادر عن حذاء رئيس الأرشيف فانتصبت قامته ومات الهمس واتخذت ملامحه سمتا جديدا . تطلع الى الجسد الضئيل والقامة القصيرة وهى تخطو نحوه ..

ـ نعم ؟

ـ تأشيرة المدير على هذه الأوراق ..

أشار الساعى الى النور الأحمر وقال باقتضاب وهو يدارى ابتسامة أبى الهول :

ـ مشغول .. فى لجنة ..

ـ تأشيرته ضرورية ..

استوعبه الساعى بنظرة طويلة .. وقال بجدية شديدة :

ـ هات الأوراق وتفضل أنت .

تسلم مرزوق أفندى الأوراق من ساعى المدير وعاد الهمس الخافت والضحكات المكتومة التى يراعى فيها ألا تخدش قداسة المكان ، وعاد رئيس الأرشيف مهرولا يضيق بصوت حذائه المزعج الصفير . دخل الهواء رئتيه فى الطابق الثانى ، وفى الطابق الثالث سمح لنفسه أن يتنفس بعمق ، تمتم بعدة كلمات لم تجد من يسمعها . صاح فى موظفيه ـ قبل أن يجلس ـ بصوت متهدج :

ـ لا فائدة .. كأولاد المدارس بالضبط ..

وجلس والنور الأحمر يلهب خياله كعين شيطان ..

وعاد الزمن يسير سيره الرتيب .. نظر مرزوق أفندى الى ساعته ، وسأل الساعى عن الوقت عندما شك فى سلامة ساعته ، وعادت صورة صابر تعلق في خياله .. « هيه ! ماذا يجنى الانسان من وراء عناده ؟ لكن .. ما أكثر الأغبياء فى هذه الدنيا .. ! »

وفجأة ، حدث ما لم يحدث من قبل تحت سقف هذه المصلحة . مزق صراخ مفاجىء ستار الصمت الذى عشش على المصلحة طيلة عمرها ..

أصاخ الناس السمع غير مصدقين . ازدادت الضجة علوا فلم يجدوا بدا من تصديق آذانهم . تبينوا جليا مصدر الصوت ..

ـ صابر . موظف الحسابات . هو ..

ترك البعض مكاتبهم وأطلوا من النوافذ يرقبون المشهد المثير . كان صابر متهجما شديد الغضب ، تحول فى سورة غضبه الى صورة لم يعهدوها فيه من قبل . أين ذهب هدوءه ورمائة خلقه ؟

ـ فوضى هى . لن أنفذ . ليشنقونى أذن ..

صاحت من كل حجرة أصوات تتحكم فى مخارجها حنـــاجر مدربة :

ـ ماذا يا صابر ؟ ماذا يا صابر ؟

أريد أن أقابله · سأقابله · سأقول له لن أنفذ أوامرك ··

زاد عدد المطلين من النوافـــذ . أدرك الكثيرون الموقف فى غموض ·· شاهدوا رئيس حجرته يهرول خلفه لا هثا شاحبا ··

ـ تعال يا صابر ·· سنتفاهم ·

ازداد هياج صابر وعلو صوته ، وازدادت سرعة أقدامه :

ـ سأتفاهم معه بنفسى . سأتفاهم بنفسى ..

غمغمت الأصوات التى ظلت فوق مكاتبها وتلك التى ظلت مزروعة في النوافذ :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ··

ـ ماذا حدث ؟

ـ مجنون متهور · جنى على نفسه ··

صاح رئيس الحجرة :

ـ كل واحد على مكتبه · أنت هناك مالنا نحن ؟ كونوا فى عملكم ..

لكن الضجة طغت على صـــوته واصطفت الوجوه كلها فى النوافذ ·· خرق مرزوق أفندى من حجرته ممتقع الوجه يتساءل عما يحدث · أشار له ساعى المدير الى مصدر الضجة · دق قلبه وهو يلمح شبح صابر يندفع نحوه كشيطان · فشل الكثيرون فى ايقافه أو حتى فى اللحاق به · اقترب من حجرة المدير حيث النور الأحمر

يطلق شعاعه الباهت • اعترض مرزوق طريق صابر • صاح بصوت مبحوح :

ـ ماذا ؟

ـ ساقابل المدير ••

ـ السبب ؟

ـ لا شأن لك •

ـ ممنوع •

ـ لكنى سأقابله •

حاول مرزوق أن يشخط :

ـ ممنوع قلت لك ••

انفجرصابر :

ـ لكنى سأقابله . تمنعنى ؟ أنت !

ـ أكتب ورقة بما تريد ••

ـ أنت لا تأمرنى . أنت مجرد سكرتير . أنت فاهم ؟ مجرد سكرتير ؟ فاهم ؟ فاهم ؟

زاد شحوب وجه مرزوق • اســتماتت قبضته فوق ذراع صابر • سد بجسده طريقه .. تكاثر عليه السعاة والموظفون . رجا رؤساء الحجرة موظفيهم أكثر من مرة العـودة الى مكاتبهم ••

ـ مجنون ، سيلقى جزاءه مالنا نحن ؟

لكن شيئا يشدهم فينسى الموظفون كل ما له صلة بالمستقبل •

تعلقت أبصارهم بصابر وهو يدفع المتكاثرين عليه بكل قوته محاولا الافلات من حصارهم . جلجل صوته الغاضب المحنق :

ـ ياسيادة المدير . أريد أن اراك . أن أحادثك . سأقول رأيى فيك . كلمة واحدة ثم اشنقنى ..

أنحبست أنفاس الجميع وسلم رؤساء الأقلام أمرهم لله ، وظلت العيون تبحلق فى فضول نحو حجرة المدير يرمقون الباب الخشبى المغلق ولمبة النور الأحمر المضاءة . ساد الصمت ومرت لحظة كالدهر . تغلب مرزوق على جفاف حلقه . قال بلهجة آمرة متوعدة :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أنت مجرد سكرتير . قلت لك أريده هو ..

ـ يامجنون ..

ـ لا شأن لك ..

ـ أنت تعطل عمل اللجنة ..

ـ ولو ..

ـ ستجنى على نفسك ..

ـ ليكن ما يكون ..

ـ لكنك لن تراه ..

واتت صابر قوة مفاجئة فأفلت من الحصار وكاد المحيطون به ينكفئون . واندفع ـ هو ـ يقتحم حجرة المدير دافعا بابها بقدمه ..

بعد مدة وجيزة ، كان الصخب يملأ كل الطرقات ، والضجيج يصدر عن كل حجرة والموظفون جماعات ـ يضربون كفا بكف ، ويرددون ذلك الخبر العجيب :

ـ المدير فى أجازة من خمسة أيام ..

١٩٦٥

الزيارة



مجـــاهد

أشهر خفير فى قريتنا . اسمه بالكامل « مجاهد عبد الســـميع راضى » ، رجل طيب ومستقيم ، خجول كعذراء صبور كجمل ، متسامح ، يسمع سخرية الأطفـــال فيعجب لذكائهم ، وقد يدعو لهم بطول العمر ، فالعيال أحباب الله ، وزينة الحياة الدنيا . وله منهم خمسة . أصغرهم مريض . أشاروا عليه أن يذهب الى المستشفى فى شبين الكوم . المواصلات سهلة ومريحة ولكن .. الشكوى لغير الله مذلة والشفاء دائما من عنده . صدق أبوه حين كان يقـــول : انه « هو » حكيم الفقراء . ولكن أف على الانسان . عجول لا يطيق الصبر . كل شيء يتحسن باذن الله . وقلبه لا يكذب أبدا . وزوجته هى الأخرى بنت حـــلال . منامها لايخيب . رأت المنام نفســـه ثلاث ليـــال متتالية . وسط دارهم ملىء بكيزان الذرة الخضراء . كتاكيت لا حصر لها تملأ البيت . اللون الأخضر فى المنام خير ، والكتاكيت بركة لا حد لها .

ــ أنت يا مجاهد . انت نايم ؟

ــ لا أبدا يا شحات .

سأل شحات عن اللمة وتجمع الناس . أوجز مجـــاهد فى أسلوب يناسب جلال المناسبة أن موكب المحافظ سيعبر القرية .

ــ المحافظ . معقول ! طيب اسمع يا شيخ الخفر ..

كثرت ثرثرة الشحات . ضاق به مجـــاهد ، وغضب من سخريته ، فهو جلف لا يعرف الأصول . الحصان الأبيض الذى

يركبه الصول توفيق قادم نحوه . لا تجوز السخرية والثرثرة في هذه الساعة .

ـ اسكت يا شحات . عيب .

ضحك الشحات عاليا . قال بلسانه السلبط يسخر منه :

ـ حاضر يا حضرة الشويش .

غلى الدم في عروق مجاهد . رفع خيزرانته فجأة وبغضب .

ـ والله العظيم أضربك . انت فاهم ؟ عمى في عينك .

تراجع الشحات وأغلق فمه . الناس لا تأتى الا بالشدة . أنت المخطىء يا مجاهد . سكوتك جعل الطابور حولك يختل . الأولاد تخطت مكانها ، وثرثرة الفلاحين لا تنقطع . رفع مجاهد خيزرانته مهددا ، فانتظم الطابور ..

ـ خد بالك يا مجاهد .

ـ حاضر يا حضرة الضابط .

أنت سبب البلاوى يا شحات الكلب . أول مرة يأخذ عليه أى واحد من الرؤساء أى مأخذ . لماذا سرحت يا مجاهد ؟ انت يا من تسهر الليالى ولا تنام . نوم الخفير بالليل خيانة . أرواح الناس أمانة فى رقبتك . ستسأل عنها أمام الله . ان كان الناس لا يعرفون فضلك ، فالفضل لن يضيع عنده . اللصوص وحدهم هم الذين يعرفون من هو مجاهد . يخافونه كالموت . لو كان زميله « خضر » مكانه تلك الليلة لضاعت بقرات الشحات . الشحات نفسه الذى يسخر منه الآن . أناس لا خير فيهم .

ـ أنت يا أخينا . ستقابل المحافظ بالقميص ؟!

ـ وأنت مالك ؟

ـ اخرس يا كلب .

الشدة دائما تنفع يا مجاهد . انصرف الشحات وكفاك ثرثرته وسخريته . وحتى لو عاد ، سيعود متأدبا وفي مظهر يليق . حاف ولا يرتدى سوى القميص ؟ لا يليق أن يرى المحافظ هذا .. لكن .. الأطفال يا مجاهد . اللعنة على أمهاتهم . وجوههم « مقشفة » لم يلمسها الماء . الذباب يحط عليهم . الذباب شيء خطير تسبب فى مرض محمود ، ابنه . آه متى تتنور النساء ؟ ماذا تقول فى الجهل يا مجاهد ؟! . لكن المحافظ سيزور القرية . سيزورها اليوم. وكل شيء يجب أن يكون فى مظهر يليق . بالله لو غسلت الأمهات وجوه أبنائهن ، ماذا سيتعبهن ؟ عدم تقدير المسئولية بحق . تظن الناس كلها مثلك يا مجاهد ؟ هم ينامون وأنت يقظ .. وكل شيء لن يضيع هباء . شيء مفاجىء يثير سخطه . لفافة من الأوراق تلقى فى وسط الشارع . من قذف بها ؟ أرغى مجاهد وأزبد ، وجرى على لسانه كلام كثير ، وبسرعة حمل الورقة وألقاها بكل قوته . قرية تستحق الحرق . لا تغسل وجوه أبنائها وتدع أجسادهم للذباب . يحرسهم بالليل ويسخرون منه بالنهار . لو كانوا يفهمون، لاغتنموا الفرصة التى لا تلوح للقرية الا مرة فى العمر . المحافظ سيزورها ، ولو رضى عنهم لأصابهم الخير « العميم » ستبنى المدرسة الاعدادية . سيقام المستشفى الذى تعطل بناؤه عامين . المستشفى يا مجاهد لو يمكنك أن تغير الناس يا مجاهد ! لو احتذوا حذوك ! كل شيء فيك فى الحقيقة لامع يليق . الولد « عتريس » عافاه الله . أحيا حذاءك من الموات . جعله لامعا كالجديد . هذا ما كان يحمل همه منذ علم بالزيارة . مجاهد يتأمل نفسه . لمس بيده كسرة « المكوى » فى كم جلبابه . الجلباب ناعم مسحت خشونته « حديدة » الكواء . كل شيء فيك لامع يا مجاهد . حتى ماسورة

البندقية • الزيت أزال صدأها • وبقطعة خرقة تلفت لبندقيتك الأنظار . حذار يا مجاهد وأنت تجلو ما سورة البندقية . فوهتها فى بطنك . زميل لك فى قرية مجاورة فعل ما تفعل ، فانطلقت فى بطنه رصاصة . ماذا يفعل الأولاد بعدك ؟ لكنه يستطيع أن يرى نفسه بحق « أشيك » خفير . شاهد ملابس خضر وعطا وسلطان وغيرهم من زملائه ، حتى ملابس شيخ الخفراء نفسه ، فشعر بالامتعاض • أنت بخلاف الناس جميعا يا مجاهد • حتى أنظر الى منطقة خضر وسلطان • الكلام والثرثرة والطابور المعوج • الصول توفيق لا يفارقهما . ومنذ حادثة الشحات لم يعد اليه . الثقة فيك يا مجاهد كبيرة . يجب أن تكون أهلا لها . لكن ، لو أن الأطفال كانو نظفاء ! يا عالم من تظنونه ؟ انه المحافظ • مجاهد يود ــ لو كان الأمر بيده ــ أن يفرش له الأرض بالحناء • عربته ستغوص في هذا التراب ؟ وتلوث عجلاتها بهذا الطين ؟ اولاد الكلب القوا المـاء فى الشارع من أيام .. لو يعرف من هم لسقاهم من الطين ..

ــ خذ بالك يا مجاهد الطابور .

مرة أخرى نسيت نفسك يا مجاهد . الشاويش عبد الحميد على دراجته يكرر التنبيه • لابد أن موعد قدومه قد أزف :

ــ أنت يا ولد • انت يا بنت •

الخيزرانة تلسع من يجتاز الطـابور • الأولاد يتراجعون • عيونهم تبحلق فى الاتجاه الذى سيأتى منه . اللغط يزداد .

ــ هس يا ولد . اخرسى يا بنت .

مجاهد يهدد من يتحدث بأن ينهال فوقه . لابد أن امرأته تقف غير بعيد منه ترى سطوته . قلبه يدق بعنف . آن الأوان وسيرى المحافظ . وسيراه المحافظ . سيأتى موكبه من هـذا

الاتجاه . سيغضب بالتأكيد لاعوجاج الطـــابور فى مناطق خضر وسلطان وعوض . سيقرف من ملابسهم . حتى وضع الانتباه لا يعرفونه ! حرام والله أن يكونوا من رجال الحكومة . سيخجل منهم حضرة الضابط وسيشتمهم :

ــ يا خفر الكلب تنظفوا . كونوا مثل مجاهد . رجــل عارف واجبـــه ..

يحبه الضابط كثيرا . انت أحسن خفير يا مجاهد . أستغفر الله . لا يشكر فى نفسه الا ابليس . لكن الانسان يغتاظ بحق . هل هؤلاء خفر ؟ رجل الحكومة لابد أن يظل يقظا . لا ينـــام فى دركه . كل ليلة تسرق الداورية بندقية واحد منهم وتضعه فى « سين وجيم » . لم تحدث معه مطلقا هـــذه الحكاية ، الضابط يعرف هذا جيدا . حتى زوجة الضابط ــ الشابة الحلوة ــ هى الأخرى معجبة به . بلسان زوجها نفسه تقول :

ــ ليس فيهم الا مجاهد .

ولا تنام وتشبع نوما الا اذا كان منزلها في دركه . طيبـــة والأصيل أصيل . ويارب حكمتك . لا هو بالمن ولا بالحســد . أولادها فى بياض الشهد وصحة الحصان . كل شىء بأمره يا مجاهد ولا داعى للكفر . الفرج قريب . وحلم زوجتك لا يخيب . سيمر المحافظ وهو متأفف . وعندما يصل الى مكان منطقتك سيتوقف . رجل النظام يحب النظام . سيشير الضابط اليه : هذا يا حضرة المحافظ أحسن خفير لدينا . يخشاه اللصوص كالعمى . ساهر لا ينام . زوجتى لا تشعر بالاطمئنان الا فى نوبته . سيستدعيه المحافظ : تعال يا مجاهد . رنين الكلمة جميل . سيعرف المحافظ اسمك . سيعرف اسمك . سيعرفك يا مجاهد . وسينزل من العربة . الضابط يبتسم ابتسامته الجميلة . زادهم الله من فضله:

ـ اسمك .

ـ مجاهد عبد السميع راضى ياسعادة البيه .

ـ طلباتك يا مجاهد ؟

ـ الستر يا أفندم نعمة وعطاء .

ـ عندك أولاد ؟

ـ خمسة يا سعادة البيه . كلهم ان شاء الله خفر فى خدمة الحكومة .

ـ خمسة ! ماشاء الله

ـ لكن ..

ـ هــــه .

ـ قل يا مجاهد . قل يا بطل .

ـ محمود . أصغرهم . مريض يا سعادة البيه .

ـ مريض ! يعالج فى الحال .

ـ يا سعادة المحافظ ، هذا الخفير قبض على عشرين حادث سرقة فى أقل من شهر .

ـ صحيح كلام الضابط يا مجاهد ؟

تكلم يا مجاهد ولا تخجل . هذه فرصتك .

ـ ... وأمسك حادثة قتل فى غير دركه ، ومن قبـل أن تقـــع ..

ـ لا يوجد فى الدنيا كلها خفير بهذا الشكل ، يزاد مرتبـه جنيها كاملا .

امسك قلبك يا مجاهد .

ـ .. ولابد من مكافأة ضخمة .

كم ستكون المكافأة يا ترى ؟ عشرة جنيهات ؟ خمسة عشر ؟ ربما عشرين . المدير والضابط يحيطان به . انتباه يا مجاهد . وصورة تلتقط . امرأته تزغرد من الفرحة . ليس هكذا يا امرأة لا يصح هذا أمام المحافظ . المحافظ يبتسم . والجرائد تنشر الصورة ، ويناديه الشيخ مصطفى مسعود فى دكان بقالته :

ـ تعال يا مجاهد . صورتك فى الجريدة مع المحافظ .

ـ لا أحد قدك يا مجاهد . بقيت من الحكومة ..

ـ طول عمره من الحكومة يا « مغفلين » .

ـ انبسط يا عم . سيعرفونك فى مصر .

القاهرة أيضا ستعرفك يا مجاهد . أحلام يا أولاد ! كل شىء عند الله ميسور . الجرائد تنشر صورتك . واسمك يا مجاهد سيكتب بالمطبعة . المطبعة يا مجاهد . يعنى كبيرة ! صور المجرمين تنشر هى الأخرى . مجاهد يعجب أن الصحف تنشر صور المجرمين :

ـ والله حقهم الاعدام ، لا الشهرة .

الحقد سيأكل قلوب خضر وعطا وشيخ الخفراء أيضا . من يدرى ؟ قد يرقونك مكانه . أو لعل المحافظ يجعلك من حرسه . قلبك يدق يا مجاهد . امسك نفسك . يجب أن يكون مظهرك لائقا . ترى هل اللبدة وضعها المرسوم ؟ لو كانت معه مرآة ؟ لعل التراب ذهب بلمعان نحاستها . لو يسمح الوقت بدقيقة يطمئن فيها على مظهره !

ـ الخفير مجاهد عبد السميع راضي . شد وسطك . انتباه.

عاد الشحات الملعون الى عبثه مع شلة من زملائه الأجلاف. مجاهد بغت . الغضب أخرجه من وعيه . فلاحون بحق لا يعرفون الذوق . النظام اختل يا مجاهد . سيفسد الملاعين كل شيء ، ولن يجد المحافظ فى البلدة شيئا يرضيه ، سيظنه كغيره من الخفراء . حتى الضابط سيغضب .

ـ حتى أنت يا مجاهد ، نظام منطقتك مختل !

ـ الأولاد يا حضرة الضابط .

ـ الأولاد ؟ يا أخى اضربهم .

وبالعصا يصلح كل معوج . والصمت خيم على الشياطين . الطابور فى استقامة الشوم . السكون شمل الجميع ، ولكن أف على جيوش الذباب . عينا مجاهد تتحركان فى محجريهما . عينا مجاهد فى وسط رأسه . عيناه تريان من أمام ومن خلف . يمناه تتأكد من وضع لبــــدته ، وتلمس نعومة ذقنه الحليقــة ، شاربه المفتول دليل رجولته . البندقية لامعة . وكذلك نحاسة اللبدة . كل شيء على ما يرام . منامك يا أم محمود لا يخيب . سترين الآن قيمة زوجك . قلبك يدق يا مجاهد . عيناه تعودان لتفرضا على الأولاد الصمت والسكون . عصاه كفيلة بأن تدق رأس أى عابث كالشحات .

ـ استعد يا مجاهد .

ـ حاضر يا شويش . « جاهزين » .

مجاهد يسمع دقات قلبه . أصوات من بعيد تصيح . سحابة غبار تلوح عن بعد . الصياح يزداد . الضجيج يعلو . ودقات قلب

مجاهد تعلو أكثر . الصياح يقترب ، وما تحت السحابة يتضح ست عربات ، أمامها وحولها موتوسيكلات العظمـــة تضج من محركاتها . عظمة وسلطان وجـل صاحب الأمر . لكن .. أين المحافظ ؟ وضابط النقطة ؟ فى أى عربة ؟ الصياح يمتد الى منطقته كما تمتد ألسنة النيران فى الحطب الأولاد يندفعون نحو الموكب . اختل النظـام .

ـ مكانك يا ولد . مكانك يا بنت ، يا أولاد الـ ..

لا احد يسمع يا مجاهد . لكن أين المحافظ ؟ فى أى عربة ؟ ست عربات . أبعد يا ولد . حافظ على النظام . ماذا تجـدى عصاك الآن يا مجاهد ؟ المتوسيكلات كفيلة بابعادهم عن الموكب . حذار يا ولد أن يدوسك أحدها . أين ضابط النقطة ؟ الموكب يقترب جدا . نسيت نفسك يا مجاهد . اقفل فمك المفتوح فهذا لا يليق . بندقيتك ليست فى وضع انتباه . الملاعين داسوا حذاءك اللامع . كسرة « المكوى » مسحها جذب الأولاد . أنت رجـــل حكومة . لا تنس نفسك كالأطفال . العربات فى مواجهته تماما ، أين المحافظ من بين هؤلاء ؟ لا أثر لضابط النقطة ..

ـ يحيا سعادة المحافظ .

ـ يحيا العدل .

ـ عاش رجال الحكومة

ـ نريد المدرسة الاعدادية .

ـ نريد المستشفى .

اخرس يا ولد . اخرسوا يا كلاب . ليس هكذا تكلمونه . الاجلاف مستمرون فى هتافاتهم . لا أحـــد يستمع لأوامرك . سيغضب من قلة الذوق هذه . لكن ، أين هو ؟

ـ من هو المحافظ يا شحات ؟

ـ من فينا يسأل الآخر ؟

دقات قلب مجاهد تزداد عنفا . العرق يرطب وجهه ويبلل جبهته • شعر رأسه يقف • عيناه زائغتان • ضابط النقطة لا أثر له . الموكب يجتاز مجاهد بمسافة كافية . نار الحماسة تنطفىء فى منطقته لتشتعل فى منطقة عطا حيث الموكب . الأولاد من حوله يصمتون كجمرات نار انطفأت ، ثم يتبعثرون كالرماد . مجاهد يعجب لتفرقهم . نظراته لا تزال تترقب . موكب المحافظ لم يصل بعد . لماذا يتفرقون ؟ الضجة من حوله تزداد خفوتا . نار الحماسة تنطفىء فى منطقة عطا أيضا • سحابة غبار الموكب اقتربت من نهاية القرية .. الصول توفيق قادم على حصانه الأبيض ، من الاتجاه الذى ينبغى أن يأتى منه المحافظ .

ـ مجاهد . اذهب يا ابنى واسترح . انتهت على خير .

ـ وموكب المحافظ ؟

ـ أمرك عجيب . هو الذى مر .

السؤال يفلت من لسان مجاهد دون وعى ، وبصوت هاتف:

ـ وسيادة المحافظ كان موجودا ؟

ـ طبعـــا .

الكآبة تعلو ملامح مجاهد ، نظراته تسبح فى الهواء . الصول يتأمله بتمعن • يهز رأسه فى عجب ، ثم يقهقه عاليا ويقول وهــو لا يقصد الا الضحك :

ـ مالك يا مجاهد ؟ كنت تريد شيئا من المحافظ ؟

مجاهد يفيق فى جزع . ينظر الى الصول على حصـــانه الأبيض . قامة الصول فى علو مئذنة . رأس مجاهد ـ على طوله الفارع ـ أدنى من بطن الحصان . صوته يأتى من بعيد :

ـ أنا ؟ .. لا .. أبدا ..

الصول ينصرف قبل سماع الرد . مجاهد يجرجر قدميه. بندقيته تتهدل من فوق كتفه . رأسه مطأطأ . حذاؤه يغوص فى وحل حارته ولا يبالى . امرأته تلحق به . تحمل طفلها المريض الذى يئن . تحادثه فلا يشعر بوجودها . نظراته تتأمل جيوش الذباب عن يمين وعن يسار وهى تهب من سـباتها عنـد مرورهم . طنينها وحركتها يتوازيان مع خطوات الموكب الصامت ، وخلف الموكب تموت الحركة ويصمت الطنين ، ويحط الذباب ليختفى فى أكوام « السباخ » . مجاهد يضيق بالطنين ، ويلعن القـذارة والجهل ، والصمت والرطوبة . مجاهد يرفع رأسه الى السماء ، يلتمس أشعة الشمس . صورة الصول توفيق على حصانه الأبيض تلوح كمارد أسطورى ، وسؤال يرد على خاطره فجأة : يا ترى ، فى أى عربة من العربات الست كان المحافظ ؟ وكيف يمكن أن يكون شكله ؟ فمن يدرى .. ربما يكون قد رآه ..

١٩٦٥

المطاردون



هذا هو الشارع كما رآه أمس • العمارة التى يقصدها تلوح هناك •• عالية • عالية جدا • والبواب النوبى الضخم على كرسيه فى مدخلها • صندوق المثلجات الأحمر أمامه • نظراته كالصقر • رجل « كشر » • عندما سأله أمس — فى همس — عن « البيه » الذى يقصده ، شخط فيه :

ـ الدور السابع شقة ٤٢

ـ نعم ؟

ـ الدور السابع شقة ٤٢ • لا تسمع ؟

ظل ينظر حوله ، محاولا جهده أن تلتصق بذهنه معالم المنطقة • هم بالانصراف •

ـ خذ • تعال • قلت انك ••

ـ نعم • لكن •• آ •• ليس اليوم •• اليوم فقط جئت •• جئت لأعرف مكان الـ •• العمارة ••

نظرات الرجل قاسية •

ـ لا مؤاخذة •• أنا غريب •• شكرا •• شكرا ••

انصرف فى بطء • نظرات الرجل لا تزال تطارده • كاد يندفع الى شارع جانبى • لكن •• لا •• التفت غريزيا خلفه • البواب واقف • صوته مسموع وهو يحادث زميلا له فى غضب • يدا البواب تشيران اليه • يتحدثان عنه ؟ ليعد • سيفهمهما أنه

« بلديات البيه » .. بل .. قريبه .. أبو « البيه » أرسله بهذه التوصية .. حادثته اليـوم بالتليفون .. وموعدنا غدا .. حتى أقرأ ..

اكتشـف في ذلك الوقت – أنه اقترب جـدا من العمارة . تحسس جيوبه . الأوراق كما هي . نظر فى سـاعته . لا يزال أمامه ساعة كاملة .. وجد نفسه يتوقف ثم يعود أدراجه قبل أن يراه البواب .. كيف سيمضى هذه الساعة ؟ سار كيفما اتفق . عاد الى الشـــارع الكبير . الضجة والزحام .. الحركة لا تهــدأ . سيارات وعربات ومركبات ترام . الناس مسرعون . مد المقاهى يبتلع الطوار . النـاس الجالسـون يتحادثون . يعرفون بعضهم البعض .. لافتات النيون تتراقص ولما يختف قرص الشمس بعد .. سيكون يوما من أبناء هذه المدينة .. وجد نفسـه بجوار الحديقة الكبيرة . ســـور الحديقة لا تلوح له نهاية . أخذت الأقدام تقل والحركة تهدأ والزحام يتخلخل .. ثم لاح الفراغ وساد الصمت .. النسيم منعش واللون الأخضر يريح العين ، والسور يؤدى الى مزيد من الصمت والفراغ .. قدماه لا تزالان تخطوان .. فجأة . برز عن بعد قريب ثلاثة رجال . نظراتهم تترقبه . همس يدور . دق قلبه وشعر بألم فى ســـاقيه . تعلقت نظراته بأتوبيس قادم . تجاوزه الأتوبيس سريعا مثيرا خلفه زوبعة . الأتوبيس يبتعـــد ويبتعد والمسافة التى تفصله عن الرجال المتخشـــبون فى أماكنهم تقل وتقل .. اختفى الأتوبيس تماما وتلاشـــت الزوبعة الترابية المتراقصة .. ووجد نفسه أمام الرجال الثلاثة . تفحصته العيون باهتمام من رأسه الى قدمه . نظر لا اراديا الى ملابسه الريفية .. هم أن يتوقف .. أو يعود .. لكنه ظل يسير كالآلة .. تجاوزهم بخطوتين . التقطت أذنه المرهفة قول أحدهم :

ـ هو ؟

ـ يهيأ لى ٠

توقف تماما ٠ جفناه لا ينطبقان ٠ الآلام الغليظة فى ساقيه تزداد ٠ الرجل الثالث لا يشارك فى الحديث ٠ يدخن فى عصبية ٠ شخط الأول فى الثانى :

ـ لا ٠ أنت متأكد ؟

ـ طبعا ٠ هو ٠

ألقى الرجل الثالث فجأة بسيجارته ٠ خطا نحوه فى تحفز وغضب :

ـ هو أنت ؟

بدأ يخلع جاكتته ٠ اســترد الريفى ادراكه لنفســه ٠ قال بصوت واهن :

ـ أنا ؟ ماذا هناك ؟

سلم الرجل الثالث جاكتته لواحد من زميليه :

ـ « تستعبط » حضرتك ؟ ستعرف حالا ٠

أمسك بســكين ٠ اتجه اليه ٠ تراجع الريفى الى الخلف ٠ تدخل الشخص الذى لا يحمل الجاكتة :

ـ ليس هكذا ٠ نتفاهم ٠ لا تكن عصبيا ٠

ـ دعنى أؤدبه ٠

تنبه الريفى قبل فوات الوقت أن الذى تدخل لصالحه يهم بتطويقه من الخلف ٠ استدار فى ذعر ٠ مشى بخطوات سريعة ٠

لاح أتوبيس عن بعد . تعلقت به نظراته . خذله الأتوبيس ودخل من شارع آخر . نظر خلفه . الثلاثة خلفه يتهامسون .

ـ خذ . تعال . لاتخف .

ازدادت سرعة خطواته .

ـ تعال . خذ .

الخلاء موحش والمبانى لا تزال بعيدة .

ـ لا تجر . لن نتركك .

وجروا خلفه . فجر الفزع فى أقدامه قدرة فائقة على الجرى .

ـ قف . قف .

آن للمبانى أن تقترب . لاح مسجد أبيض منعزل . استرد شيئا من طمأنينته . نظر اليه رجل خارج من المسجد :

ـ مالك ؟

أشار للخلف . غالب جفاف حلقه . قال برجاء :

ـ هؤلاء .

نظر الرجل الى حيث أشار .

ـ ماذا فعلت لهم ؟

أبطأ . هم بالكلام . جاء الصياح من خلف عاليا :

ـ امسك . حرامى . امسك .

نظر الرجل لوجهه الريفى المذعور وملابسه البلدية المتهدلة . اتجه نحوه مادا يده .

ــ ولا والله العظيم ٠ أبدا ٠

أفلت من قبضـــة الرجل بمعجزة وانــدفع يجــرى ٠ صرخ الرجل ٠

ــ حرامى ٠ امسكوا ٠

انضم اليه المطاردون الثلاثة وخرجت أقدام أخرى متحفزة من داخل المسجد :

ــ أين ؟ أين ؟

ــ هذا ٠

اندفعوا بكل قوتهم خلف اللص ٠ وبدأت أقدام أخرى تنجذب من كل جانب الى مصدر الصــوت ٠ الصراخ والصــياح يترددان خلفه ٠

ــ حرامى ٠ امسكوا ٠

ــ حرامى ؟ ابن الكلب ٠ أين ؟

وتندفع أقــدام أخرى ويدوى الصياح ، ويصرخ كل شيء ، وينظر الأرنب المذعور خلفه ٠ العدد من خلفه قد تكاثر ٠٠ ويتكاثر ٠٠ ما العمل ؟ يقف ؟ ٠٠ ليشرح لهم حقيقة موقفه ٠ كادت يد أن تمسك به ٠ انتفض وزادت سرعته ٠ اصطدم بطفل يحمل صينية طعام ٠ تأوه الصبى وسقط ، وتناثر الطعام وانكسرت الأكواب ٠ زمجرت الأصوات متوعدة ، فتنبه الواقفون حول محل عصير ٠ خلى على الفور مكان الكثيرين من أمام البــائع ٠ كف البــائع عن صب العصير ٠ ظل يرقب المطاردة واناء القصب نصف مائل فى يده ٠ دفعه الفضـــول أكثر فخرج أمـام المحل ليتابع الفرجة ٠ لم يتنبه

لانسكاب العصير على الأرض . عينه لا تفارق اللص . اللص فى المقدمة ينهب الطريق ، لكن المطاردين « الخائبين » عاجزون عن اللحاق به . لو لم يكن مشغولا ؟ سحابة غبار المطاردة حجبت الرؤية عنه . لكن الضجة لا تزال تسمع . الضجة تسكت كل الأصوات فى محلات البيع وداخل البيوت . أخذت الوجوه تطل من النوافذ . ازدحمت الشرفات فى طرفة عين . كف حلاق عن قص شعر زبونه منعه حياء المهنة أن يشبع فضوله فعاد بعد فترة الى عمله بعد أن عثر على موضوع جديد للحديث . اختفى الريفى فى شارع جانبى . نظر خلفه . لا أحد . انحرف فى شارع ثالث . ميدان فسيح . هادىء . الهواء منعش والشرفات خالية . تنفس ملء رئتيه . شعر بدوار . قاوم رغبة شديدة فى أن يسقط فوق الأرض . امسك نفسه . تخشب مكانه . كل شىء حوله يسير سيره المعهود . على المقهى كانت الأحاديث تدور . قال موظف لزميله :

ـ .. وفى النهاية ، استطاع المحامى أن يبرهن أن الأمر لا يعد رشوة .

ـ والمحكمة ؟

ـ القاضى اقتنع .

ـ اذن ستعود قريبا للعمل ؟

ورفع الرجل يديه نحو السماء ، لكن صياحا مدويا انشق عنه الصمت فأعاده الى الأرض . فوجىء الجالسون جميعا بالحشد المزمجر .

ـ هنا . هنا .

ـ أين ؟

ـ أنظروا . هذا هو .

هؤلاء هم مرة أخرى . كأن عاما قد مضى منذ أفلت منهم . تلاشى شعوره بالجهد واندفع يعدو والصياح من خلفه يصفعه :

ـ حرامى . امسكوا .

اندفع الموظف وزميله يلتحمان بالحشد ، وخلت معظم مقاعد المقهى ، وبدأت النوافذ تفتح ، والشرفات تزدحم ، وتفجر المكان الهادىء عن ضجة لا يعهدها كثيرا ، وأسرعت الأقدام تجرى فى اصرار ، وارتفعت سحابة غبار فى سماء الشارع ، وخلت مقاعد كثيرة فى أماكن متعددة ، وقذفت البيوت الهادئة بالكثير من أبنائها ، وعلا الصياح فأصبح ضجيجا ، وامتدت الأيدى تشير ، وتستحث ، وترشد ، وارتبكت حركة العربات ،وأطلقت الأتوبيسات أبواقها المزعجة ، وحبس ركاب الأتوبيسات والمتجمهرون فى الشارع انفاسهم ، وتعلقت آمالهم بيد الموظف وهى تكاد تقبض على اللص لكن اللعين اندفع بقوة ليست فى بدن بشر ، فزمجرت الأصوات الغاضبة ، واتجهت أقدام أسرع من فوق الطوارين فى حركة كماشة ، لكن عربة لورى ضخمة حالت بينهم وبينه ، فانتهز الفرصة واندفع فى شارع الى الشمال ثم انحرف الى اليمين ثم الى الشمال ، وفى الشارع الجانبى الهادىء الضيق أبطأ من سرعته ، وشعر بقلبه يكاد يقفز أمامه ، وتمنى لو يلقى بنفسه فوق الأرض ، لكن الضجة كانت لا تزال تدوى من داخل أعماقه برغم الهدوء المحيط به . نظر اليه بائع بطيخ فى تساؤل بليد ثم عاد لزبونه :

ـ خلصنا يا أستاذ . أسعارنا كدا .

ـ وتسعيرة الحكومة ؟

ـ اشتر من الحكومة .

– لكن .. هذه سرقة .

– سرقة ؟ ماذا تقول يا أ ..

– هنا . هنا .. تعالوا ..

نظر البائع لماسح الأحذية وهو يصرخ ، نظر الى حيث تشير أصابعه ، ثم نظر خلفه . ما هذا ؟

– حرامى . حرامى .

لعن البائع غباءه . أولاد الكلب . صاح فى ولده على الفور :

– بالك من الدكان يا ولد .

وركب رأس الحشد المندفع الهائل ، لكن المجرم طار كجن خرافى .. اندفع كآلة .. الدنيا تدور به .. اين هو ؟ ماذا يفعل ؟ ما هذا كله ؟ من هؤلاء ؟ الحشد من خلفه فظيع فظيع . أين المفر ؟ انحرف الى اليمين . انحرف الى اليسار . انحرف .. أفضل وسيلة للافلات . نظر اليه بقال يستمع لأحد زبائنه :

– أول أمس عدت من العتبة ماشيا . تصور .

– من العتبة ؟ (أشار بيده) أنظر .

نظر الزبون الشاب للجسد الضئيل الذى يجرى . هز كتفيه ورسم دهشته بشفتيه . عاد لحديثه :

– ماذا أفعل ؟ ضاعت الفلوس كلها . لم يترك لى « ابن الحرام » قرشا واحدا .

قنبلة انفجرت فى الشارع ، أم وقع أقدام بشر ؟ .

– حرامى . حرامى .

صاح الزبون :

ـ ماذا كنت أقول لك ؟

وجرى يلحق بالحشد فى اصرار • هؤلاء الكلاب يستحقون الحرق • جاء من العتبة ماشيا • غاب عن عين البقال وسط الحشد الهائل • أفاق البقال على صوت خادمة صغيرة تحادثه :

ـ تعرف ؟ سرق مائة جنيه •

ـ مائة جنيه • من قال لك ؟

أشارت للحشد :

ـ هم •

ـ جائز • ماذا تريدين ؟ هه ؟

كانت تتأمل الحشد فى فضول • أخذتها الدوامة فغابت تكشيرة سيدتها من بالها • وجدت نفسها تلحق بذيل الحشد مع ركب الأطفال والصبية والمنهكين • كان الحشد قد أصبح جمعا كبيرا • فى كل لحظة تزداد ضخامته كخلايا أصابها سرطان ، فى كل لحظة تجدد شبابه دماء جديدة ، وتلتحم به أجسام جديدة من كل اتجاه ، فيندفع كنهر متدفق ، تياره العنيف فى الوسط يلقى بكل ما يعوقه على الحافتين الراكدتين ، كأخطبوط له مئات من الأذرع تمتد فى حركة كماشة لتطوق الضحية • كان الحشد خليطا عجيبا من البشر • من كل جنس • من كل سن • من كل نوع • لا يفوقه الا اصرار « المجرم » على الفرار • اندفع يمينا فشمالا ، فيمينا فشمالا •• لكن الحشد خلفه بمئات الأذرع والعيون • أين المفر ؟ فكرة مفاجئة تدهمه • اياك والشارع الذى جئت تبحث عنه • ما اسم هذا الشارع ؟ أين يقع ؟ أين أنا ؟ قد يراك « البيه » الذى جئت له • سيطل من نافذته ويراك •

ـ أنت الذى أرسلك أبى ؟

ـ والله العظيم ..

البيه يزور عنه بوجهه . يقول لأبيه :

ـ متأسف يا والدى . لا أبحث عن عمل للصوص .

ـ لص ؟ غير معقول ؟

ـ شاهدته بعينى .

ـ غريبة !

ـ حرامى . حرامى .

جسد أسمر ضخم يسد طريقه. نظراته تذيب الأرض من تحت قدميه . الفار سيسقط بين مخالب القط .. قوة خفية تدفع به الى أحضانه . الذراعان ستحدقان به . البواب نفسه ؟ . أنا فى نفس الشارع ؟ صرخ من أعماقه : لا . لا . واتته دفعة عجيبة فأفلت فى آخر لحظة . وانطلق يعدو ويدخل الى اليمين ثم الى اليسار .. من أين تواتيه كل هـذه القوة ؟ كيف يجود جسـمه المنهك بكل هذه الطاقة ؟ عيناه لا تريان شيئا ، فكيف يتفادى العقبات ويدرك معالم الطريق ؟ عقله خال من كل شىء ، والدقات الرهيبة تهز جسده ، والعرق يلصق ملابسـه بجلده . اختناق قاتل . لو يلفظ آخر أنفاسه . لو يموت . لو يتركون له الفرصة ، ثانية واحدة يلتقط فيها نفسه . جفناه لا ينطبقان . لا يزال يجرى ؟ هو يجرى ؟ منذ متى ؟؟ الشرفات مليئة بالناس . الوجوه تطل من كل نافذة . من كل طابق . عن يمين وعن يسار . نظراته المستجدية تتجه اليهم . الوجوه تزور عنه . تتراجع خلفه .. اتجه لليمين . لليسـار . أصوات من داخله تصرخ :

- برىء ٠

- برىء ٠

- برىء ٠

- برىء ٠

لا أحد يرد ٠ لا أحد يســـمع ٠ الجميع متجهمون ٠ أيديهم معقودة فوق صدورهم ٠ شفاههم مطبقة ٠ نظر « للمنصات » العليا ٠ نفس الوجوه ٠ والشفاه ٠ والصرامة ٠ جسم من أعلى منصة يطل عليه ٠ يده تشير نحوه تعلقت أحاسيسه كلها بشفتيه :

« أنت لص »

- أبدا ٠ أبدا ٠

يد الرجل تشير نحو الحشد الكبير فى تساؤل حاد ٠

- لا أعرفهم ٠

نظراته تنتظر الرد ٠ لكن وجه الرجل ضـــاع فجأة كما ظهر وسط الوجوه المتجهمة ٠

- حرامى ٠ لص ٠ امسك ٠ امسك ٠

من ؟ ماذا ؟ قدمان تكادان تحدقان به ٠ ترنح ٠٠ لكن ٠٠ الموت ٠ الموت ٠ تفجرت فيه رغبة عارمة على القتال ٠ اســـتدار فجأة ٠ سدد قبضة الى بطن مطارده فسقط يتلوى ٠ ارتبكت صفوف الحشد ٠ تقهقرت الصفوف الأمامية ٠ سقط كثيرون تحت الأقدام ٠ اندفع يجرى من جديد ٠ أفاقت الجموع ٠ زمجرت الأصوات فى زئير رعب :

ـ مجرم • مجرم •

آه • ماذا فعلت ؟ الدبيب يزداد • الكماشة توشك أن تقبض عليه • نظراته تعود لأعلى • اختفت « المنصات » • الفراغ الواسع من كل الجهات • أين ؟ الحديقة من جديد • والمسجد قائم هنـاك ؟ رفع رأسه الى السماء • مزق من السـحب الكثيفة تخفى وجهها الأزرق • حدأتان تحومان فى صمت • غراب يتبادل النعيق مع آخر •

ـ قف • لن تفر •

الأقدام لا تزال تنجذب الى الحشد • شـارع جانبى آخر • اندفع اليه • قطع حجارة تتساقط حوله • أصابت احداها رأسه • الدماء • قف • العمارات تنقلب • الهواء أصفر • الأشجار تميل • حجر آخر • الموت • لا • الرغبة الوحشية فى القتال تطفو من جديد • قف • عد اليهم • امسك واحد منهم • أولهم • اقتله • اقتله • الحجارة تتساقط • حجر ثالث • أجر • أجر •

انحرف الى اليمين • الهدوء • وقف يلتقط أنفاسه • العرق الغزير يتصبب من كل مسامه • الق بنفسك فوق هذه الأرض • ارقد • نم • نم ••• أغمض عينيه • كل شيء يدور ويدور ••

ـ هنا • تعالوا •

فتح عينيه • نظر لصبى الكواء فى بلادة • الكماشة تحيط به • قدماه لا تستجيبان لارادته الواهية •

ـ أى •

سقط من أول ضربة • انهالت فوقه القبضـات والركلات •

دائرة كثيفة تحدق بالجسم • الدائرة تكبر وتكبر • الأجسام تتزاحم وتتدافع • بقية الحشد يغطى أرض الشارع •

الحشد لا يزال يجذب الكثيرين • النوافذ تفتح • والشرفات تمتلىء والصياح يعلو والضجة تزيد • والأسئلة تدور :

ــ ما هذا ؟

ــ حرامى •

العيون ترقب ما يدور في فضول • والأكتاف تهتز عند سماع الرد • والضجة تجذب المزيد والمزيد •• سمع جندى الدرك بالضجة • اتجه نحو الحشد فى اضطراب • ابتعد البعض عندما رأوه • سأل بلهجة رسمية عما يحدث • هز رأسه عندما سمع الرد • ظل يرقب الأمر •• « هؤلاء يعكرون صفو الأمن » • صاح الضابط الراقد فى أعماقه :

« جريمة قتل في دركك وتدعى أنك مظلوم ؟ لا تستحق الا الرفت » •

اندفع بكل قوته نحو الدائرة الكثيفة النشطة •

ــ كفى • كفى •

الضرب لا يزال مستمرا • جذب الواقفين في غلظة •

ــ قلت كفى • « فيه » حكومة •

نظرت اليه الوجوه الغاضبة المتحفزة •

ــ اذن لابد من القسم • لابد من القسم •

صاح بلهجة من طعن فى كفاءته :

ـ عارف شغلى .

خفت كثافة الدائرة . ظهر جسم اللص ملقى دون حراك . النظرات تصوب اليه والى الجندى فى ترقب وتحفز . وقف الجندى على رأس الجسم الملقى . نادى بلهجته الرسمية :

ـ من ضاعت نقوده ؟

مضت فترة صمت .

ـ من ضاعت نقوده ؟

فترة صمت أطول . رفع صوته بغضب :

ـ من الذى ضاعت نقوده ؟

ثقل الصمت . ازداد ثقلا . العيون تتبادل النظرات . الآذان ترهف فى انتظار الرد . العيـــون تحملق فى كل اتجاه . صاح الجندى بصوت نافد الصبر :

ـ الذى يتهمه بالسرقة يأتي هنا .

لحظات كأنها عمر كامل . اندفع الجندى فى غيظ نحو الجسم الملقى . قلبه فى عجالة . أخرج أوراقه من جيبه . نظر اليها . وجم الجميع للتعبير الذى ارتسم على وجهه . صاح بصوت انسان :

ـ يا أولاد الكلاب . من قال انه لص ؟؟

الواقفون يتبادلون النظرات فى صمت . نظراتهم مسـمرة فوق الجسد الملقى . ثلاثة منهم يتقدمون يعاونون الجندى فى رفع الجسد . الجندى يتأبطه من الخلف . يسند ظهره الى صـدره ، فيطل الجســد المضروب على جمهرة الواقفين المتناثرين من حوله ، والمطلين من النوافذ والشرفات ، بوجهه المرهق ، ورأســه المائل

الممدود ، وعينيه المغمضـتين ، وذراعيـه المفرودتين المتراخيتين ، وساقيه المترنحتين اللتين لا تقويان على الوقوف ، وملابسه المتهدلة المخضبة ببقع الدماء ٠٠ الواقفون هنا وهناك يركزون نظراتهم عليه فى صمت ، ثم يعـودون ليتبادلوها فيما بينهم ٠٠ وبرغم صـياح الجندى ومعاونيه ، الذين انتحوا به جانب الطريق حيث أرقدوه ، فقد كان الصمت يرين على كل المكان ٠٠

وبعد قليل ، أخـذت النـوافذ تغلق ، والشرفات تخلو من المتفرجين ، ٠٠٠ وبدأ المتنـاثرون فوق أرض الشارع ـ منكسى الرءوس ، زائغى البصر ـ ينصرفون فى خطوات بطيئة ، لا ينم وقعها عن أدنى صوت ٠٠ تماما تماما ٠٠ كالسائرين فى جناز ٠٠

١٩٦٥

المرجان

التصفيق الحاد لا يكف عن الدوى ، والهتافات القوية تحكى صوت الرعد ، وبمعجزة وجد المذيع فرصة ليصف شيئا من فخامة الحفل ، بدأ يعدد أسماء بعض الشخصيات التى توافدت — وتتوافد — على مقر الحفل ، لكن صوته ضاع ثانية وسط الضجيج ·

— تحيا ذكرى الزعيم ·

والهتافات تتردد فى جنبات حجرته فتزلزل كل شىء · المنضدة الصغيرة تهتز ، الأقلام التى عليها تئز ، حتى المذياع — نفسه — يبدو أنه سينفجر ، وهو — وحده — بادى الهدوء · ملامحه الجامدة لا تعكس شيئا من انفعالاته · أعماقه ترتجف · قلبه يخفق · نظراته زائغة لا تبصر مما حولها شيئا ·· اكتشف أنه ارتدى ملابسه من زمن · ارتمى فوق أقرب مقعد · اعتمد رأسه بكفه · الدنيا كلها تدور به ·

— الله ! فهمى · ماذا بك ؟

غمغم بصوت هامس مبحوح :

— افكر فى عدم الذهاب ·

— تفكر فى عدم الذهاب ؟ مستحيل ·

هز رأسه مرات وهو مطرق · انساب صوتها الرقيق ويدها فوق كتفه :

— ليس هكذا ·· يجب أن تتمالك نفسك ·· لا تستسلم للحزن ·· الناس جميعا يعرفون مكانته فى قلبك ··

هم بأن يصيح فيها أن تكف عن اللغو لكنه تمالك نفسه ·

ـ •• لكن حاسديك •• سيفسرون غيابك على نحو آخر ••
انت تعرفهم ••

ـ تحيا ذكرى الزعيم •

تحسس جيب سترته الداخلى فجأة • صاح فى أعماقه صوت زاعق « معى قنبلة ستنسف كل شيء » • ترى هل سمعته ؟

ـ •• سيلعبون بالورقة بحذق ••

واختلط صوتها فى أذنه بصوت آيات القرآن التى بدأ بها الحفل •

ـ هيا •• بدأ الحفل •

فجأة هب واقفا • هذه هى الساعة التى يعد لها من شهر كامل ، فلم التردد ؟

ـ العربة جاهزة •

سار بخطوات حازمة • شفتاه تتمتمان • « لابد •• لابد » •• نظرت اليه فى قلق حتى اختفت عربته • قلبت يديها فى حيرة • ترى ماذا به ؟ من مدة طويلة وهى تلحظ شروده • تنهداته تفلق الصخر • سمعته كثيرا يحادث نفسه • الضوء فى مكتبه يظل مشتعلا حتى الفجر • أهى المناسبة الحزينة أعادت اليه ذكريات مجد ولى ؟ كان أصدق أصدقاء الزعيم • أقرب أنصاره الى قلبه • سلطت عليه الأضواء وهو يرقى بسرعة درجات المجد • وعند كل تعديل كان يتناول الحزب كان الجميع يتوقعون له مركز الصدارة بعد الزعيم • ترى ؟ لماذا لم يحدث هذا أبدا ؟ أهى حداثة سنه ؟ أم أن الزعيم كان يعجم عوده فيضعه فى مواقف اختبار حتى مات فجأة وأفلت كل شيء ؟ •• عبرت له مرات عن حيرتها ودهشتها :

ـ تنظيمات ادارية ·· وماذا أقول للزعيم ؟

ـ لكن ·· يجب أن تفعل شيئا ·· يرضيك هذا ؟

ـ ثقتى بالزعيم فوق كل شيء · والزعامة ـ على كل حال ـ لا تنال بالترقية ؟ · هزت رأسها وهى تستعيد مناقشاتها معه ·

ـ تحيا الذكرى الخالدة ·

أنصتت لضجة الهتافات وفجأة دهمها سؤال · ترى أكان يستبعد عن عمد ؟

نظرت أمامها · صورة الزعيم ترمقها بنظرات عتاب · هزت رأسها فى استنكار واستعاذت بالله من وسوسة الشيطان · عادت تركز ذهنها فى ضجة الاحتفال ·· لكن وسوسة الشيطان عادت تتسلل من جديد · ماذا تقول ؟ هذا هو الآن مدير لأرشيف الأشغال بعد طول كفاح · بينما قيادة الوطن تئول لحفنة نالت من لسانه كل هجوم ··

استبدت بها الحيرة من جديد · نعم ·· من يستطيع ـ فى هذه الدنيا ـ أن يفسر كل شيء ؟ · لكنه ـ هو ـ متأكد الآن من كل شيء · عرف ما كان يستغلق على فهمه ·

تنبهت على صوت المذيع « وصل الآن الى مقر الحفل الأستاذ فهمى شاكر صفى الزعيم » ·

استردت شيئا من طمأنينتها ·

ـ الزعيم خالد لا يموت ·

ـ أهلا أستاذ فهمى ·

رحب بهم الكثيرون ممن آل اليهم الأمر ·

ـ هون عليك يا رجل ·

ـ مالك ترتجف ؟ !

ـ أقلقنا غيابك ·

ـ لـكن مكانك محجوز ··

تمتم يرد على محدثيه بكلمات لا يعيها · جلس وسط ورثة الزعيم · الحزن والكآبة يطلان من كل الملامح · دوى الهتافات لا ينقطع ·

ـ تحيا ذكرى الزعيم ·

« اخوانى ·· اسمحوا لى أن أقول ··

ـ عاش الزعيم · الزعيم خالد لا يموت ·

« كان فضله أكثر من أن يحصى ·· كان مجرد اسمه يدخل الرعب فى قلوب المستعمرين ··

ـ الموت للأعداء ··

ـ نبى الوطنية لا يموت ··

التقطت أذن فهمى بضع كلمات لم يستوعبها على الاطلاق ·· هز رأسه وهو يتأمل ما حوله · زفر · هذا كله زيف · ستدمر القنبلة كل شىء · ستزلزل الأرض من تحت أقدامكم جميعا · ستقلقل كل شىء حتى رفات الزعيم · اهدموا قبره المنيف ·· فكثير عليه حفرة فى ···

ـ تجرؤ على بعد موتى ··

ـ آه لو عرفت حقيقتك فى حياتك ·.

ـ أنت حاقد ٠

ـ وأنت ٠ عرفت عنك كل شيء ٠

ـ ها ٠ موتور ٠ أحنقك أن تضيع فرصتك ٠

ـ أنــا ؟ ٠٠

ـ تقسم أن الدوافع الشخصية لا تحركك ؟

ـ يا صاحب المنطق الـ ٠٠

ـ أستاذ فهمى ٠ ماذا تقول ؟

نظر لمحدثه فى ذهول٠ دق قلبه ٠ صورة للزعيم بالحجم الطبيعى ترمقه ٠ أنت هنا ؟٠ لن أقول لا ٠ كنت قبل آن أسير فى فلكك زعيم كتلة من الشباب ٠ كنا فى رأى أنصارك متهورين ٠ رفضنا أن ننضم لحزبك ٠ آكان غرورا ؟ ٠٠ لكنا كنا مخلصــين فى كل ما نقول ٠٠ وفجأة ، وجدتك ببابى ٠٠ الزعيم الــكبير ، بنفسه ، بلا ضجة ولا هيلمــان ؟ !

ـ رشيد باشا ؟ يا خبر ٠٠ تفضل ٠

ابتسم الباشا ابتسامته الأبوية العريضة ٠ جلس على اقــرب كرسى ٠ كان من الخشب العتيق ٠

ـ يا خبر يا باشا ٠ جئت بنفسك ؟

ـ مصلحة الوطن يا فهمى جاءت بى ٠ الوطن فوق كل شىء ٠٠

وربت بيده على كتف فهمى فى أبوة حقة ٠

ـ اسمع يا فهمى ٠ أنا معجب بك وبأصحابك ٠

أنا ·· ؟! الفرحة تكاد تستبد بفهمى ·· تمالك نفسك وتذكر طموحك · لابد أن ترقى لمستوى المقابلة ·

ـ نحن جميعا يا باشا فى خدمة الوطن ·

ـ عظيم · وهذا ما يحيرنى ··

وثبت نظراته فى عينى فهمى ثم قال بروية :

ـ ما دمنا هكذا ·· فلماذا نختلف ؟

أجفل فهمى ·· قال وهو مطرق :

ـ بصراحة يا باشا ·· فى حزبكم أناس ··

كفاه الزعيم مشقة الحرج :

ـ أعرف ·· لا ترضون عنهم ·· لكم أفكاركم وحماستكم ، ونظرتكم الخاصة للحياة ·· لكن ··

ونظر من جديد فى عينى فهمى نظرة لم يستطع أن يصمد لها :

ـ ·· قد تكونون أشد منهم عداء لجنود الاحتلال ·· ومع ذلك أراهن أن الأعداء سيعدون بذلك ·· مادام هذا سيديم انقسامنا ··

واستفاض الحديث المنمق ، ومن يستطيع أن يرفض حكم المنطق ؟

« وحين تتكتل الأمة فى حزب واحد · فمع من سيتعامل جنود الاحتلال ؟ » ·

انتفض فهمى كالمصعوق · الصوت واضح · أتراه قد عاد الى الحيـاة ؟ ·

استرد شـيئا من هدوئه وعادت أذنه تلتقط كلمات الخطيب التى تقطعها الهتافات :

ـ اقوال الزعيم خالدة ·

ـ عاش نبى الوحدة الوطنية ·

الحناجر لا تعرف الضعف · وبالله من أين يأتى كل هؤلاء ؟ الميدان على سعته يضيق بهم · الشوارع المؤدية اليه أشد ازدحاما · الأجساد تتلاحم · المشاعر تتشابك · الميدان بحر هائج · أمواجه فى حركة دائبة · صور الزعيم تطفو فوقها · صور الزعيم متناثرة فى كل مكان · وفى الشرفة ـ حيث خلفاؤه خاشعون ـ تطل نظراته الصارمة من صورة باضعاف الحجم الطبيعى ، تتحدى الموت وتخيف الأحياء · فرائصك ترتعد من مجرد النظر اليه · أمام شخصيته الجبارة تلاشيت والضعف سمة فى بنى الانسان · لا تنكر أنك ارتجفت يوم زيارته · أنت المفكر المعتز بكل ما يقول · آمنت ـ على مضض ـ أن فى البلاد من هو أقدر منك وأجدر · وبفكرك فلسفت الأمر ، وأصبحت ـ بعد مدة ـ من غلاة الأنصار · قربك اليه · أنالك سمعه وابتساماته وكان للآخرين المناصب والجاه · هاهم أولاء يملكون الأمر · تسود كلمتهم وأنت واحد من « محفوظات » أرشيف الاشغال · ياللنهاية السارة · زفر زفرة طويلة · الأسد حبيس فى قفصه فأنى له بتحطيم القضبان ؟ هيا الق قنبلتك · ألقها فالوقت ليس فى صالحك · عما قليل سيتفرق الجمع وتعود الى ما كنت فيه من عذاب · ظنت بك الزوجة الظنون · كان من الخير أن تصارحها · ستعلم الآن كل شىء هذه هى بجوار الراديو تنتظر ـ فى قلق ـ كلمتك ·

ـ تحيا ذكرى الزعيم الخالد ·

ـ تحيا ذكرى موحد الأمة ·

يسقط المستعمرون الطغاة ·

« وكانت كلمة منه تقيم جيوش الامبراطورية وتقعدها ..

ابتسم فهمي في مرارة . فى الطريق الى هنا كادت احدى عربات جيش الاحتلال ــ أن تدهمه . تنبهوا ياغافلون . عشرون عاما قضاها الزعيم مصــدر القول وصــاحب التفويض والمتحدث باسم الامة .. حرارة الهتافات تكاد تذيب قرص الشمس :

ــ الجلاء بالدماء .

الامة ــ يدا واحدة وصوتا واحدا ــ تردد الهتاف .

ــ الجلاء بالدماء . الجلاء بالفداء

كان هذا ــ بالفعل ــ هو الحل الوحيد . خطف جنود الاحتلال ومثل بجثثهم . الصحف تنشر الأخبار بالعناوين المثيرة . نار المعركة ضد الاحتلال تســتعر . الزعيم صــامت لا يريد أن يتحدث . خطة سياسية ولا شك . ألهمتنا يازعيمنا وباسمك يموت الناس . أنت الوطن مجســما في شخص يعبده الناس من غير صلاة . ســتضرب المستعمرين ضربتك القاصمة ، وبوركت يداك . الزعيم جالس فى مكتبه . فهمى يتجرأ ويقطع عليه خلوته . يلوح بالصحيفة فى فرح طفولى .

ــ بدأ الكفاح الحقيقى ياسيادة الزعيم .

نظر الزعيم اليه نظرة طويلة غاضبة .

ــ ليس هكذا يكون الكفاح .

لماذا يتجهم ؟ ماذا هناك بحق الله ؟

ــ هذا خير من لاشيء ياباشا .

تدفق صوت الزعيم كالسيل :

ـ اسمع يا فهمى ٠ هؤلاء « الاولاد » لا يمثلوننا ٠٠ انشر بهذا تصريحا فى الصحف ٠ هؤلاء فوضويون ٠٠

اتسعت حدقتا فهمى ٠ امتلأت جبهته بأكثر من علامة دهشة واستفهام ٠ أخذ الزعيم يذرع غرفته بخطوات عصبية ٠ جلس على مكتبه ٠ عاد يقول بصوته الغاضب الجهورى :

ـ هؤلاء خونة ٠

ـ خونة ؟؟

انتفض الزعيم واقفا ٠ ضرب المكتب بقبضة يده :

ـ أين حنكتك السياسية يا فهمى ؟ نعم خونة ومأجورون ٠

ظل فهمى فاغر الفمِ ٠ نظر الى الزعيم يستلهمه الايضاح والتفسير ٠

ـ ٠٠ الأمة يد واحدة ٠ هل تفهم ؟ هذا ما يخشاه المستعمرون٠ حوادث من هذا النوع ٠ تعنى اننا غير مسيطرين على الشعب ٠ لماذا ؟ لاننا لم نعلن الكفاح المسلح بعد ٠ ولماذا لا تعلنه الآن ؟ ستسأل بالتأكيد ٠ لأننا بصراحة لا نستطيع ٠٠

وعلا صوته أكثر ٠٠

ـ ٠٠ وهؤلاء ! يريدون أن يجروا الشعب لمعركة غير متكافئة ٠ هذه مؤامرة دفع المحتلون ثمنها مقدما ٠

وعاد الى صوت الزعيم هدوؤه الجبار ٠ ربت على كتف فهمى ٠٠

ـ ٠٠ أربعون ألف جندى يا فهمى ٠ أمام شعب أعزل ٠٠

ـ أستاذ فهمى ٠ ستقتل نفسك حزنا ٠

ـ يا أستاذ . الزعيم فى قلوبنا جميعا .

نظر فهمى الى محدثيه . طالعته الصورة الرابضة خلفه .

ـ لكن هذا هو الحل الوحيد . الى متى نسكت ؟ .

نظر زميلاه الى بعضهما البعض .. مصمصا بشفاههما فى اشفاق ..

ـ الى آن نستعد .. نحن الآن نكسب وقتا .. الوقت فى صالحنا ..

ـ و .. ماذا نقول للناس ؟

ـ يا فهمى .. السياسى لا يكشف أوراقه .

همهمة هتافات لا تفلح رغم علوها أن تنفذ الى ذهنه .

ـ .. ما قلته لك ليس للجماهير ..

الهتافات تنفذ الى ذهنه فى النهاية ..

ـ يحيا الزعيم المخلص ..

نظر الى الصورة ..

ـ ماذا لو خضنا الآن معركة مسلحة ؟ سيكتشف الأعداء إننا غير مستعدين .. سيعود البلد مائة عام الى الوراء ..

ـ عاش الزعيم المخلص ..

الهتافات من كل جانب .. الصخب يعم أرجاء الميدان .. أسنانك تصطك يا فهمى وفرائصك ترتعد .. أين أنت ؟ ومن أنت ؟ وماذا بحق الله تريد ؟ ..

ـ وبعد يا أستاذ فهمي ؟ ماذا يفعل الرجل العادى اذن ؟٠٠

ـ تحكم فى عواطفك قليلا يا أستاذ ٠

ـ كان رحمه الله يحبه كولده ٠٠

هز رأسه مرات ٠ رفع عينيه الى وجوه محدثيه ٠ وجوه مستريحة لا تعرف الأرق ٠ وماض طالما حمل عليه قبل أن يسير فى فلك الزعيم ٠ لا أحد يذكر الآن عن ماضيهم شيئا ٠٠ فعباءة الزعيم التى يلتفعون بها تخفى عن الناس كل شيء ٠٠

٠٠ لن تعريهم الا قنبلتك ٠٠ ألق بها ٠ ٠

ـ بالروح نفدى ذكراك ٠٠

الهتافات تخرجه من داخله ٠٠ نظراته الزائغة تتأمل الميدان الفسيح ٠ الرءوس تغطى كل أرضه ٠ الرءوس متقاربة ٠ متلاصقة تهتز ٠ الهزة تنتشر ٠ حركة موج ٠ هذا البحر الغاضب ، هل يقوى على أمواجه قاربك الورقى ؟ ٠٠ هز رأسه مرات ٠٠ صوت فى أعماقه يهمس فى الحاح ٠٠ ألا تقتل الرصاصة الفيل ؟٠٠ ألا تقتل الفيل ؟ الصوت الهامس يتحفز ٠٠ قم يا فهمى ولا تتخاذل ٠ قل كلمتك ٠ أعلن على الناس ما عرفت ٠ قل لمن حولك : أبعدتمونى الى أرشيف الأشغال فجنيتم على أنفسكم ٠ هناك تكشف الأمر ٠٠ يا للمهزلة ٠٠ ورقة صغيرة فضحت الزيف ٠ سألقى بها فى وجوهكم ٠ أريد أن تفسروها ٠ نظر خلفه وأمامه ٠ نظرات الزعيم مصوبة اليه ٠٠ ترمقه فى غضب ٠ هز رأسه مغتصبا الابتسام : ليتك كنت حيا ٠٠ أين المنطق المنمق ليفسر كل شيء ٠

ـ ٠٠٠ ٠٠٠

ـ ٠٠٠ ٠٠٠

ماذا تقولون ؟ أنصت لهتاف الجماهير · يده تتحرك · تشير اليهم أن ينصتوا اقرأوا هذه اورقة · اقرأوها · وزارة المستعمرات تطلب من مندوبها السامى هنا أن يجرى اصلاحات ضخمة وعاجلة فى أرض الزعيم · شاب يحمل على الأعناق ليهتف ·· تكذبنى ؟ ·· تريد أن تعرف أين أرض الزعيم ؟·· فى منطقة كانت قاحلة ·· اشتراها بسعر التراب · هى الآن جنة بالطبع ·· الفضل لمشروعات الرى والصرف ·· الهتافات يزداد علوها فتطغى على صوت داخله · أعماقه تصرخ لتتغلب على الضجة الشديدة ·· تدرون متى حدث هذا ؟·· وقت أن كان الزعيم فى منفاه ·· وقت أن كان الناس فى الشوارع يموتون من أجل عودته ··

ـ يحيا الزعيم النزيه ··

ـ ابن الشعب · حبيب الشعب ·

ضغط بيده على رأسه · العرق يتصبب منه · رجفة قوية تسرى فى بدنه ·

ـ أستاذ فهمى ··

نظر لمحدثيه · ماذا يقولون له ؟ زوجته بجوار المذياع قلقة عليه · ماذا جرى له هذا الشهر ؟ كان يجب أن تصحبه وتضرب عرضا بالتقاليد ···

« والآن · كلمة الاستاذ فهمى شاكر ، صفى الزعيم وحبيبه ·· »

التصفيق يدوى لا تلوح له نهاية · صور الزعيم ترمق فهمى من كل جانب ·

الرعشة القوية يزداد سريانها فى جسمه ·

ـ حبيب الزعيم حبيب الأمة .

ـ عاش الاستاذ فهمى حبيب الزعيم .

أين صوتك يا فهمى ؟ جفاف حلقه يزداد . الموجودات ترتجف أمام عينيه . الرءوس تتحرك . الموج الشديد ..

« أيها .. الاخوة .. أود .. وأنتم .. تحتفلون ..

دقت زوجته على صدرها . ما لصوته هكذا ؟ ماله يرتجف ؟

ـ عاشت ذكرى الـــ ...

رحمها التصفيق والهتاف عن متابعة صوته . أعطاها فرصة للانفعال وأعطاه ـ هو الفرصة الالتقاط أنفاسه . هل يسمعونه ؟ هل هو يتكلم أصـــلا ؟ أين هو الآن ؟ .. النظرات ترمقه من كل جانب .. صـــور الزعيم تتضخم . تعلو . ترتفع . تتجمع .. وتتجمع .. تصبح شبحا .. تملأ الميدان كله .. الشبح يرمقه بغضب .. عيناه تتحركان بثبات .. أصبعه يشير اليه :

ـ حذار .

ـ حبيب الزعيم حبيب الامة .

ـ عاشت ذكرى الزعيم النزيه .

الشبح يبتسم . أوصالك ترتجف يا فهمى . لكنه مات . تكلم .. أنت تخطب ..

« أيها الاخوة .. فى ، هذه ، المناسبة .. لا .. أجد .. الكلمات .. الكلمات .. التى ..

زوجته تمسح دموعها · مخلص لا مثيل له · لو لم يستسلم لعواطفه !

ـ الزعيم فوق كل كلام ·

ـ فصاحة الدنيا كلها لا تفى بحق الزعيم ·

الصوت الهامس فى أعماقه : وهذه الوثيقة فى جيبى ؟ أطرحها عليكم ؟؟ ··

العرق يتصبب بغزارة ·

« اخوانى ·· أمور ·· كثيرة ·· لا (هـ) ·· ندركها ·· الا (هـ) ·· بعد ·· فوات ·· الـ ·· الوقت ··

ـ لو عاد الزعيم حيا لعبدناه ·

ـ لا أحد ينسى فضلك يا زعيم الامة ·

ـ تعاليم الزعيم لا تموت ·

التوتر يملأه فجأة ·· قدرة قوية على الانفعال تدب فيه · الصوت الزاعق يردد فى أعماقه : يجب أن تكف عن هذه الثرثرة · أن ينتهى هذا اللغو ·· الصوت يهدأ ·· يعود ليهمس : الوثيقة فى جيبى ·· من مصدرها الرئيسى ·· سرى جدا وعاجل ·· الصدفة وحدها أطلعتنى عليها ·· الصدفة وحدها لحسن حظكم ··

نظراته تستجدى الجموع أن تصمت ·· لا يجب أن نظل غافلين ·· تذكروا هذا ·· تأملوه ·· لا تكونوا سذجا مثلى ·· تضاعف فى عهد زعيمكم جيش الاحتلال ··

« اخوانى ·· أمور كثيرة ·· يعجز ·· الـ ·· لسان ··

ـ عاشت ذكرى صانع المعجزات ٠

ـ عاشت ذكرى موحد الأمة ٠

حركة الموج من جديد ٠ تزيد ٠ وتشتد ٠ وتزمجر ٠ الورقة فى يده المدسوسة فى جيبه ٠ صـــماء ٠٠ بليدة ٠٠ باردة ٠٠ أصابعه تعبث بها ٠ الأمواج دوامة تتراقص ٠٠

هديرها يصخب :

ـ عاشت ذكرى الزعيم ٠

ـ الزعيم ٠٠ الزعيم ٠٠

ـ الزعيم ٠٠ الزعيم ٠٠

الأيدى تلوح ٠ تعبر بتلويحها عما تعجز الحنجرة عن قوله ٠ الأيدى تهتز ٠٠ القبضات تتوعد ٠ أين أنا ؟ ماذا أريد ؟ ماذا قلت ؟ ٠٠ ماذا أريد أن أقول ؟ ٠٠ دوار شديد ٠٠ شاب يمتطى الأكتاف، يده تشير نحوه ، صوته الصاخب المتوعد :

ـ عدو الزعيم ٠ عدو الشعب ٠

ـ الموت للخونة ٠٠

ـ الموت للأعداء ٠

نظرات الزعيم تصوب اليه ٠ الشبح يتحرك ٠ يمناه تشير نحو فهمى ٠ صوته الوقور الهادىء يسكت كل ضجة ٠

ـ هذا عدوى ٠

الشاب على الاكتاف يزداد غضبا ٠ صوته يهدر :

ـ الموت للأعداء ٠

ـ الموت للأعداء ٠

قلبه ينتفض ٠ كل خلاياه تدق ٠ زوجته فى شدة القلق ٠ صوته يرتجف ٠٠

« اخوانى ٠٠ كلمة ٠٠ واحدة ٠٠

من ذا فيه يتحدث ؟ من أين يأتى بهـذا الكلام ؟ ٠٠ الدوامة تدور به ٠

شبح الزعيم ينظر اليه فى ثبات ٠ كل شىء فى ذهنه يختلط ٠ أغمض عينيه ٠ الأصوات تصب فى أغوار سحيقة منه ٠ الضجيج فى أذنه همهمات ٠

ـ الزعيم ٠٠ الزعيم ٠٠ الزعيم ٠٠

صور الزعيم تنتشر حوله ٠ تحاصره ٠ أنفاســـه تلهث ٠ المحيطون به قلقون ٠

ـ أستاذ فهمى ٠ أنت متعب ٠ اجلس ٠

لماذا تخلص من اليد التى جذبته ؟

« كلمة ٠٠ وا ٠٠ حدة ٠٠ يا ٠٠ آخو ٠٠! ٠٠نى ٠

الجميع يصمتون ٠ يختفون من الميــدان ٠ الميــدان فراغ صامت ٠ موحش ٠ شبح الزعيم يملأه ٠٠ عينا فهمى ذاهلتان ٠٠ حمراوان ٠٠ أصابعه تتحرك ٠٠ الورقة ؟ آ ٠٠ الورقة ٠٠ الورقة ضئيلة ٠٠ ضئيلة ٠٠ مبللة ٠٠ الجماهير ترمقه باشفاق ٠٠ صوت حاد يشق الصمت :

ـ عاش الأستاذ فهمى حبيب الزعيم ٠

ـ عاش المخلصون لمبادىء الزعيم •

الأيدى تحاول أن تجلسه •

ـ يا أستاذ • الكل يعرف مكانته عندك •

شبح الزعيم يبتسم • المذيع لا تفوته الفرصة :

« الاستاذ فهمى كما هو واضح فى غاية التأثر للذكرى الحزينة ، لكنه ـ لشدة اخلاصه ـ لا يريد أن يفارق المكان ـ برغم مرضه ـ قبل أن يقول كلمته • »

زوجته تنتحب •

ـ صحتك يا أستاذ فهمى •

ـ يا الهى • أجلسوه • يكاد يموت •

هتاف حماسى • يرتفع من أعماق الصمت •

ـ الموت للأعداء •

الزعيم لا يزال يرمقه • الفأر فى المصيدة فهل من سبيل للنجاة ! فهمى يترنح •

العرق يبلل كل ملابسه • الصوت الهامس • سأجلس •• يد الزعيم تتحرك • سبابة يمناه تشير اليه ••

ـ لا بد أن تعلن توبتك •

تسمر فى مكانه •• أصابعه تكور الورقة •• تمزقها

« كلمة •• واحدة •• يا •• اخو •• ا •• نى •• »

الأنفاس متهدجة . الزعيم يقهقه فى رضا .. الجماهير تتطلع اليه بعيون حزينة . الصمت يخيم على الجميع . لا صوت الا همسات اشفاق ..

« اخوانى .. لقد .. كان .. زعيمـــ ... »

وأصاب الهلع زوجته لانقطاع صــوته ، بينما غطى دوى الضجيج على صوت المذيع ، وهو يعلن أن الاستاذ فهمى شاكر ـ لفرط تأثره وحزنه ـ قد نقل الى المستشفى فى حالة اغماء ..

١٩٦٥

الرحلة

أطلق القطار ـ لآخر مرة ـ صفيره الحاد كالصراخ • أذرع القاطرة تتحرك • الضجة الصادرة عن حركتها العنيفة تغطى على كل صـــوت • دخانها المتدافع الكثيف ينتشر متراكما ليغلف بناية المحطة باطار قاتم • الهرج على الرصيف يزداد • الأقدام تجرى ـ هنـــا وهناك ـ متعثرة • الأيدى تلوح بلا وعى • صـــيحات الذين ركبوا واشارات أيديهم تهيب بالآخرين أن يسرعوا ، صراخ هؤلاء يعلو ليرجو السائق أن يتمهل ، لكن ضـــجة الأذرع تبتلع كل صوت ، والقطار يبدأ بالفعل سيره وئيدا ، وئيدا .. الهائمون على الرصيف يلقون بأمتعتهم فى النوافذ • بعضهم يقفز اليهـــا بحركات بهلوانية ، الآخرون يجرون بحذاء القطار ، مترددين بين باب وآخر ثم يتعلقون فى النهاية ـ كيفما اتفق ـ بأحد الأبواب • كاد الكثيرون أن يسقطوا تحت عجلات القطار • سرعة القطار تزيد •• وتزيد •• وعندما تجاوز ـ بالفعل ـ رصيف المحطة كان لكل راكب ـ على الرغم من ذلك كله ـ مكانه بالقطار ، ولو على حافة سلم ••

نظـــرات الركاب غير مركزة على شيء • الأنفاس متهدجة • خيل للبعض أنهم « فوجئوا » بوجودهم داخل القطار ، بدأ الجميع يصلحون من ملابسهم ، ويجففون عرقهم ، النداءات ـ من كل مكان ـ ترتفع متداخلة :

ـ سامى • ركبت ؟

ـ أنت ياعبد المجيد • تعال هنا •

ـ مصطفى • أين حامد ؟

(صراخ طفل يردد بلا انقطاع : بابا ، بابا ، ••)

ـ نسيت شيئا ؟

ـ حامد فى العربة الثانية •

ـ المكان محجوز • تعال يا عبد المجيد ••

ـ بابا •• بابا •• بابا ••

ـ متأكد ؟

ـ محجوز ؟ •• لكنى سأجلس ••

(طفلة تصيح : أشرب يا ماما •• أشرب •• عطشانة يا ماما •)

صراخ صفير القطار المفاجىء يغطى على ضجة العربة ، وضجة الأذرع تفرض وجودها على الأذن •• النداءات تعلو :

ـ شاهدته يركب •

ـ قلت لك محجوز •

ـ تعال • تعال يا سامى •

نداءات كثيرة تتردد • مجموعات المعارف وأشـــباه المعارف تتجمع . حركة الذهاب والمجىء لا تكف كدوامة . القرف والارهاق يطلان من العيون ومن قسمات الوجوه .

ـ دعنى أجلس قلت لك •

(مناقشات حادة مماثلة تسمع فى ثلاثة أماكن أخـرى متناثرة فى العربة)

ـ قلت لك محجوز •

صوت حركة أذرع القاطرة ، واحتكاك العجلات بالقضبان يعلو مبتلعا الصراخ الغاضب ، لكن النظرات المتنمرة تزداد غضبا ٠

ـ وأنا قلت : سأجلس ٠

ـ وبعد ؟

ـ «تظنها» بالعافية ٠

ـ نعم ٠ بالعافية ٠

ـ ماما ٠ عطشانة يا ماما ٠

(صراخ الطفل : بابا ، بابا ٠٠)

ـ قلت سأجلس يعنى سأجلس ٠

ـ يا أستاذ قلت محجوز ٠ تعال يا صفوت ٠

(مشروعات مشاجرات عدة تنبثق من هنا ومن هناك ٠)

ضجة الأصوات الآدمية الغاضبة تختلط بصوت حركة القطار ٠ الضجة المختلطة تصب كلها فى أذن الجالسين الذين لا يشاركون فى أحداثها ٠ راكب أرهقته محاولة الركوب ، وتردده بين العربتين ، يقف عند نهاية العربة الأولى القريبة من مدخل العربة الثانية ، يحمل صحيفته تحت ابطه ويفرك يديه فى عصبية ٠ الحركة والضجة الشديدة ترزحان فوق صدره ٠ التفت الى المجموعة الجالسة فوق المقعد المجاور له ٠

ـ أعوذ بالله ٠ السفر قطعة من عذاب ٠

الجالسون يستردون نظراتهم المشتتة ، ينظرون لبعضهم البعض ٠ رد واحد :

ـ هو العذاب كله ٠

(أطلق القطار صفيره الحاد فجأة • وضعت الأصـــابع فى الأذن) ••

رفع آخر صوته وتركزت النظرات على شفتيه :

ـ الزحام لا يطاق •

شاب يحمل رواية يتدخل فى الحديث لأول مرة بعد تردد • أشار بيده للركاب :

ـ ما الذى جاء بكل هؤلاء ؟

ودخان القطار يتسرب من النوافذ • الأنوف تستنشق الدخان مكرهة • ضجة المتشاجرين تجذب الأنظار •

ـ وأنا قلت لن تجلس • ما رأيك ؟

ـ هكذا ؟ هه •

(جلس • امتدت يد غاضبة تنتزعه من فوق المقعد •
(التحم الشابان فى صراع وحشى •) الأصـــوات من حولهما تصيح :

ـ يا رجال • لا يصح • لا يصح •• عيب •

تمتم واحد من ركاب المقعد المنعزل مكررا سؤال الشاب :

ـ حقا • ما الذى جاء بكل هؤلاء ؟

ـ الذى جاء بك • كلهم مسافرون •

ـ « آى » نعم •

ارتفعت حواجب المحيطين بالمقعد دهشة • كيف استطاع هذا العجوز الركوب ؟ وان يجد له مقعدا ؟ •• يا خبر •• فى العربة

أيضنا سيدات وأطفال ·· عين العجوز تنظر للخلاء · دخان القطار المتدافع الكثيف يتبدد فى الهواء بعد ويتلاشى · ظل يتمتم :

ـ ·· كلهم مسافرون ·· كلهم مسافرون ··

ـ يا جماعة عيب · انت يا أستاذ ··

صراخ القطار يغطى على ضجة العربة ، لكن ضجة العربة تعود بعد انتهاء الصفير أشد مما كانت :

ـ بابا ·· بابا ··

ـ عطشانة يا ماما ·· أشرب يا ماما ··

ـ آى ·· تضربنى يا ابن الـ ··

الذعر فى عيون السيدات · سيدة تصرخ :

ـ خلصوهم يا جماعة · حرام · ياخبر ·

(أحد الشابين يلكم الآخر فى وجهه · الدماء تسيل من أنفه ·· آخر يتدخل فى الشجار ·· سيدة تصرخ ·· الراكب المقروف حامل الصحيفة ينظر لساعته فى ضيق ·)

ـ ياه (القطار بطىء ·

صوت العجوز يعلو محاولا اسماع المحيطين به :

ـ قديم كالأزل ·· أركبه منذ طفولتى ··

ـ أنتم يا رجال · عيب · كفى ·

أنظار السيدات وبقية الركاب تتعلق بالشاب الشـــهم الذى يحاول أن يفض الشجار ··

ـ كثر الناس وزاد ركاب الخط ، والقطار كما هو .

الضجة تقطع الحديث لفترة

ـ حقا ماذا تجدى عربتان ؟

ـ حتى الآن ، ليس أمامنا سواه .

الشاب الشهم قارب أن ينجح فى ابعاد المتشاجرين .
أحدهم يحاول من جديد معاودة الهجوم .

ـ عيب يا أستاذ . عيب . آجلس مكانى ..
اجلس مكانى ..

الضجة تهدأ .. لكن شجارا آخر يكاد ينبثق فى منطقة أخرى ...

الشاب قارىء الرواية يسأل باهتمام :

ـ والحكومة لا تتحرك ؟

النظرات تتجه حيث المجموعات المتشاجرة . ايقاع حركة أذرع القطار يسارع كخلفية موسيقية ثقيلة لأصوات المتشاجرين ..

ـ هى فى انتظار أن يقتل الناس بعضهم البعض ..

النظرات تتفحص المتحدث باهتمام .. أضاف فى سخرية مرة :

ـ وبذلك لا تكون هناك مشكلة ..

الشاب الشهم يصرخ فى البعيدين عنه :

انت يا أخ هناك .. انتم يا جماعة
عيب تحملوا ..

ـ يجب أن نروض أنفسنا على هذا ..

ـ السفر جزء من حياتنا ..

العجوز يتنهد . عيناه فى الخارج تتأملان الاعمدة والأشجار، وهى تتراجع بسرعة فى الاتجاه المضاد ، وزوبعات الهواء لا تلبث أن تتلاشى ..

ـ بل حياتنا كلها .. دنيا .

ـ وبعد ؟ قم أحسن لك .

صراخ الشاب الشهم لا يجدى . مشاجرة أخرى ـ بالفعل ـ توشك أن تبدأ . وقع بصره على صديقه سامى . خطر له خاطر مفاجىء . نادى على الفور :

ـ اسمعوا .. اسمعوا ..

وقف فوق مقعده . رفع صوته بأعلى من ضـــجيج القطار والمتشاجرين :

ـ اسمعوا .. سكوت ..

الأنظار تتجه اليه ..

ـ تستمعون الآن الى المطرب العاطفى المحبوب « سامى » .

ـ لن أقوم . تظنها فوضى ؟ عافية ؟

ـ لكنك ستقوم .

ـ أنتم يا جماعة . كفى .

ـ هيه سامى . ابدأ . ابدأ .

أصدقاء آخرون ينضمون للشاب الشهم الذى فض المشـاجرة الأولى ؟

ـ ابدأ يا سامى ٠

ـ قلت لن أقوم ٠

ـ بابا ٠٠ ٠٠ (الطفل يعاود البكاء)

ـ سميط ٠٠ وبيض ٠٠ وجبنة ٠٠

ـ كوكاكولا ٠٠ أورانجو ٠٠ مثلجة ٠٠

ـ يا جماعة عيب ٠

ـ ابدأ يا سامى ٠ ابدأ ٠ سيسكتون من أنفسهم ٠

ـ ابدأ ٠ ابدأ ٠

الشاب الشهم يصيح من جديد وهو فوق مقعده :

ـ سكوت يا جماعة ٠ اسمعوا ٠

شاب خجول يرتقى المقعد ٠ ظل صـامتا لفترة ٠ نظرات الجالسين والواقفين بالقرب منه تتطلع اليه ٠ الصمت يبدأ ينتشر حوله ، والنظرات تترقب انفراج شفتيه ٠

ـ اذن تعال ٠

هم الشابان ببدء مشاجرة جديدة ، صـوت غاضب من الأصوات المحيطة بسامى يصيح فيهم :

ـ اسمع يا أخينا انت وهو ٠ الله ؟!

ـ ابدأ يا سامى ٠

انفرجت شفتا سامى .. صوت بكاء الطفل ، وصياح الباعة، وبقية المشاجرات الجانبية ، وايقاع القطار الثقيل ·· كل ذلك يتشرب صوت سامى ·· الهمس يدور :

ـ اه ؟

ـ ماذا يقول ؟

الرءوس تشرئب · الصمت يفرض نفسه على مجموعة أكبر· الصراخ يقل . والآذان تبحث وسط الضجة الكثيفة عن صوت سامى ·· أفلحت فى النهاية أن تلتقطه ـ واهيا ـ من بين الأصوات الزاعقة .

« يا وابور قول لى رايح على فين ··

صوت أذرع القاطرة يعود فيسمع متواصـــلا ، كلحن رتيب لا تلوح له نهاية .. الآذان تزداد انصـــاتا ، والعيون تحملق فى شفتى سامى ·· والصمت يكاد يفرض نفسه على أكثر من نصف العربة ·· البعيدون عن سامى يتابعون حركة شفتيه ، والأغنية المحفوظة من زمن ، تنبعث من صـــدور الجميع ، لتتوافق نغمتها الداخلية مع حركة شفتى سامى ··· قارىء الرواية يسمع بوضوح صوت سامى ، وعينه على خارج القطار .

« قربت بعيد .. (الأشجار وأعمدة التليفونات تتراجع سريعة ..
« وبعدت قريب · سريعة ، متلاحقة ، خطوط الحقول المستقيمة تميل
« وجمعت حبيب ، وتنحنى··وتلتوى ·· وتنطوى·· فتضيع معالمها
« على شمل حبيب .. ويندمج الحقل فى البقعة الخضراء الفسيحة
الشجر على بعد اطار دائرى يحدد الأفق ويصد
البصر . كل شىء يتحرك ، ويتراجع ، ويدور .

«والقرب .. الدوار يصيب قارىء الرواية فيعود ببصره الى الداخل.
نصيب وجد نفســـه ثابتا فوق مقعده ، والمحيطين به
والبعد .. جالسين أو واقفين فى نفس أماكنهم ، وسامى
نصيب فوق مقعـــده يواصـــل غنـــاءه ..)

« ما تقول يا وابور رايح على فين ؟ ..

القطار مندفع ، يقذف الفضاء بسحابات دخانه الأسود ..

(الرءوس تهتز والأصوات تتمتم : رايح على فين ؟)

.. صفيره الأجش

يسمع فجأة ، فتطير العصافير من أعشاشها ، وتصرخ الغربان فوق هامات الشجر . شفتا سامى تتوقفان عن الحركة ، فيتوقف اللحن من صدور الركاب .. الأصوات تعلو من بعيد ، ومن كل بالعربة .

ـ واحدة ثانية

ـ واحدة ثانية

ـ يا أستاذ سامى . واحدة ثانية .

(الواقفون يتحركون من كل جهة ليحيطوا بسامى)

ـ واحدة ثانية . ياعم . نتسلى .

سامى مطرق فى خجل . النظرات ترمقه فى رجاء . النداءات تتحول الى هتاف منغم تصنع الأكف ايقاعه :

ـ واحدة .. ثانية ..

ـ واحدة .. ثانية ..

سامي يرفع رأسه المطأطأ • (ضجة غامضة تصدر من العربة الثانية لكنها تتوه وسط ضجة أذرع القطار ••) شفتا سامي تجذب اليها كل الرغبة فى الاستماع ، فلا تلتقط الآذان شيئا من ضجة القاطرة :

« ياورد مين يشتريك ••

الأغنية تنساب من مكمنها في الصدور • الرءوس تهتز طربا باللحن الصادر من أعماقهم • انتهى المقطع الأول من الأغنية •• ضجة العربة الأخرى تقتحم الهواء وتنفذ الى العربة الأولى واضحة .. أنصتت الأسماع لحظة قصيرة ، صاح أحد الركاب فجأة :

ـ غاروا منا • غاروا منا •

الآذان تزداد انصاتا • أصوات أخرى تردد :

ـ فعلا • غاروا منا •

ـ رد عليهم يا سمى •

(الدائرة المحيطة بسامى تزيد كثافة)

ـ رد عليهم •

بدأ الشاب الذى فض الشجار من قبل يصـــنع بكفيه ايقاعا راقصا :

ـ هيه •• هيه ••

الدائرة كلها تصنع نفس الشيء :

ـ هيه .. هيه

الأكف والأصوات تصـــنع ضـــجة حقيقية • عاود الأطفال

البكاء • قارىء الصحيفة يعود اليه امتعاضـــه ، والعجوز وقارىء الرواية يلقيان بنظراتهما الى الخارج • اعتلى واحد المقعد وهتف من جديد :

ـ سكوت • سكوت • ابدأ يا سامى •

« أبيض • غار النهار منك ••

الضجة الصادرة من العربة الأخرى تعود فتسمع ، لتفسد من جديد لذة الاستماع • الأنظار ترمقها فى ضيق • ضجة القطار تسمع فجأة • القطار يصرخ فى صفير طويل أجش • الدخان الأســواد يتكاثف ، يدخل من النوافذ ، الصدور تكاد تختنق •• الاصابع توضع فى الأذن ، لكن الضجة تنفذ عن طريق المسام والعظام •• الصمت الصاخب يسود لفترة تمتنع فيها الأقوال •• ضجة القطار تبدأ فى الخفوت ، فينحسر التوتر ، ويعود الايقاع الرتيب فيسمع كخلفية موسيقية مملة ••

ـ ارفع صوتك يا سامى ••

« خجول محتار ••

اكتشف قارىء الرواية أن صوت ســامى يرتجف • الدائرة المحيطة بسامى تواصل تضخمها •

ـ ارفع صوتك •

ـ ارفع صوتك •

ضجة العربة الثانية تقتحم الأسماع مرة أخرى • نزل سامى من فوق مقعده • الشاب الذى فض الشجار يرتقى مكانه • صاح بصوت جهورى حاول أن يجعل منه غناءا :

« آسمر •• يا اسما •• رانى ••

الحناجر تردد خلفه • الشاب يزداد وثوقا بصوته :

« أسمر •• يا اسما •• رانى ••»

الضجة تستمر ، والأغنية المعروفة تسبب لحنا جديدا جماهيريا •• أفواه العربة الأخرى تفتح وتغلق ، لكن ماذا يقولون ؟ معظم الركاب يشدهم ما يحدث • قام واحد أو اثنين من فوق مقعده ليشارك فى الغناء • صوت العربة الثانية يختفى تماما • آذان ركابها تنصت وعيونهم تحملق فى فضول ، وأفواههم لم تعد تتحرك .. التعب يدرك المغنى ، فينزل سعيدا . ابتسامة عريضة تملأ وجهه . البعض يصافحونه فى حرارة . الحركة تدب من جديد فى العربة الأخرى . الأفواه هناك تعود فتتحرك ، النظرات هنا تحاول استيضاح الصوت الصاخب المتداخل مع ضجيج القطار.

البيض الأمارة ••

النظرات تتبادل سريعا • الارتباك •

ــ « تانى » يا أستاذ . « تانى » .

الشباب يعود ليرتقى المقعد • أصبح صوته هتافا حقيقيا :

« أسمر •• يا اسما •• رانى ••

الهتاف يتردد صاخبا يصم الأذن • طفلة شقراء تميل على أذن أمها تسألها الاذن .. الطفلة تنتفض عقب سماع أمها ، تقف لتشارك فى الهتاف :

« آثمر •• يا اثما •• رانى ••

صوتها يضيع وسط الضجة الشديدة •• الدائرة صانعة

الضجة تواصل تكاثفها .. خليت بالفعل مقاعد كثيرة .. أيدى العربة الأخرى لا تزال تلوح ، والأفواه هناك تفتح وتغلق ، وأصواتها الغامضة تحاول النفاذ الى العربة الأولى فى صرار :

« الأسمر .. الأسمر ..

« الأسمر .. الأسود ..

الوهن يدرك المغنى والمحيطين به .. يحاولون التقاط أنفاسهم صوت للعربة الأخرى يقتحم أسماعهم شديد الوضوح :

« الأبيض .. الأشقر ..

العربة الأولى تعود للهتاف :

« الأسمر .. الأسمر ..

الأكف توالى التصفيق المنغم . قارىء الرواية لا يستطيع القراءة . سخط حامل الصحيفة يشتد . ملامح العجوز لا تنبىء عن حقيقة مشاعره . أفواه العربة الثانية تكف عن الحركة . الفرحة النشوانة فى العربة الأولى . طفل يسأل أباه :

ـ غلبناهم يا بابا ؟

ـ نعم .

الطفل يصفق فى زهو . والفتاة الشقراء لا تزال تغنى للأسمر .. والأيدى تتصافح ، لكن صوت العربة الأخرى يسمع كالزئير :

« نحن فتوات الحسينية ..

« نحن فتوات الحسينية ..

الارتباك يسود العربة الأولى منجديد • تعلقت الأبصار بشاب آخر يرتقى مقعدا آخر :

« يحيا أبطال المدبح ..

« عاش أبطال المدبح ..

الأيدى تلوح • الأقدام تخطو تجاه العربة الثانية لا اراديا .. حركة مماثلة تحدث هناك دون قصد .. الهتافات هنا وهناك زئير حقيقى :

« المـــدبح ..

« الحسينية ..

والضجة هنا وهناك تزيد فى كل لحظة حدة ، فتمـلأ سـماء العربة بالغبار ، أصوات كل عربة تحاول اخماد أصـوات الأخرى ، أصواتهما تتقابلان فى المنطقة الفاصلة بين العربتين ، فتصنع ضجة أعلى من ضجة القطار ، تختلط بصفير زوبعة ترابية مخيفة ، تدور فى دوامات صغيرة متقاربة .. قارىء الرواية يفتقد « صوت » سامى .. حاول أن يدندن لنفسه بالأغنية .. الضجة لا تمكنه من سـماع صوت نفسه .. ملامح العجوز تبدأ تفصح عن شعور بالقلق .. الشاب القارىء يطل من جديد الى خارج القطـار مديرا ظهره لـكل ما يحدث .. القطـــار يطوى الأرض .. صفوف عيـدان الذرة فى الحقول تميل وتلتوى .. وتختلط بالشريط الأخضر العريض ، الذى يتراجع فى سرعة .. دخان القطار يصنع جوا ضبابيا يشبه الاطار القاتم الذى تصنعه الأشجار والنخيل على مدى البصر لتحد الرؤية وتحدد الأفق .. أطفال فى قرية بعيدة يلمحون القطار .. نقطـــة سوداء تتحرك فى بطء شديد تغطيها الأشجار ويحجبها النخيل .. أحد الأطفال يلقى بالطين الذى فى يده .. يصيح فى زميليه مشيرا باصبعـه :

ـ قطار · أسبقه لكم ؟

الطفلان الآخران يلقيان هما أيضا بالطين ·· الثلاثة يجرون فى نفس اتجاه القطار سرعتهم تزيد ، الأول يصيح بعد مدة :

ـ هيه · سبقتــه ·

الطفلان الآخران يرددان :

ـ وأنا ··

ـ وأنا ··

أدركهم الملل فتوقفوا واحدا بعد الآخر · عادوا للعب فى طينهم ·· نظروا بعد مدة الى حيث كان القطار · القطار اختفى تماما ، لم يخلف وراءه الا بقعا من دخان أسود تلطخ الهواء ، وصورا مضحكة فى ذاكرة الأطفال لركاب فى حجم عيدان الحطب ، وضجة يبتلعهـا السكون ويبددها الهواء ، لكنها داخل العربتين صاخبة تصم الأذن :

« جئنا رحابك يا حسين ··

الهتاف الجديد يجدد شباب العربة ، فيسترد صوتها الواهن قوته :

« جئنا رحابك يا حسين ··

« الحسين ·· الحسين ··

قارىء الرواية يتلهف لمعرفة الرد القادم من هناك ·· الضجة من حوله تبدأ فى الخفوت بعد مدة ، فينفذ الى أذنه الصوت القـادم من هناك :

« نظرة · نظرة · يا سيدة » ·

العربة الأولى تعاود صراخها العصبى :

« الحسين •• الحسين ••

قبضات الأيدى تلوح فى « وعيد » •• العربة تبدو كجسد واحد بمئات الألسنة • لم يعد فوق المقاعد الا النساء والأطفال وقلة بين الرجال • الأقدام تخطو •• وتخطو نحو العربة الأخرى •• القطار يطلق صفيرا مزعجا ، وايقاع أذرعه لكمات فى الصدور •• الشاب يغلق روايته •• التقت نظراته بعين العجوز •• تغلب على تردده ومال الى الأمام :

ـ سوء حظنا أوقعنا معهم •

الهتافات وصفير القطار يقطع فرصة الرد • العجوز يشير اليه أن يقترب :

ـ هكذا السفر يا بنى •

« الحسين •• الحسين ••

الشاب يهز رأسه محاولا التقاط صوت العجوز :

نعم ؟ ••

« هيه •• هيه •• الحسين ••

ـ أنت حديث عهد ••

« الحسين ••

•• بالسفر ••

« نظرة •• نظرة •• يا حسين ••

ايقاع القطار الثقيل يختلط بصوت الهتاف •• الشاب يكاد يلصق أنفه بفم العجوز ••

ـ حياتى كلها أسفار •• تاجر متجول •• لم يخل سفر من ضجة •• الشاب فى شدة الضيق •• رفع عقيرته فى غضب مشيرا نحو الدائرة التى تقترب من مقعده :

ـ كهـــذه ؟ ••

تمتم العجوز بصوت يأتى من بعيد :

ـ وأكثر ••

الضجة تقطع أفكار الشاب • الشاب يحاول أن يجمع شتات فـــكره •• هم بتوجيه سؤال للشيخ •• فوجىء به يضحك •• نظر الى حيث يشير •• طفل صغير يحاول النزول الى ممر العربة لينضم للدائرة •• والده يمنعه بالقوة فيهتف حيث هو بأعلى ما يستطيع :

« الهثين •• الهثين (الحسين •• الحسين) ••

ـ رأيت ؟

الشاب يمط شـــفته السفلى • عاود النظر الى الدائرة التى تتحرك نحوه • النظرات الغاضبة تتجه نحو العـــربة الأخرى •• الأيدى تلوح • الأصوات تصرخ •• صوت العربة « اللعينة » يغطى على « صوتهم » ••

« السيدة •• السيدة ••

« هيه •• هيه •• السيدة ••

أيدى بعضهم تصنع حركاتمستفزة ثابتة . وآخرونيخرجون ألسنتهم • الغضب يســـيطر على نفوس العربة الأولى • النظـرات

الحانقة تبحث فى ارتباك عن مخرج • فـوجىء قارىء الرواية بجاره حامل الصحيفة مرتقيا مقعدا وسط الدائرة :

« الأسد ملك الحيوانات •

الصوت الواهن يسترد قوته :

« عاش ملك الغابة •

الهتاف يصنع ضجة جديدة • الأيدى تواصـل تلويحهـا •• الرجل يندمج فى صراخه • الأقدام تواصل الخطو • الدائرة تصبح فى مواجهة مقعد العجوز • الشاب ينظر للشيخ فى جزع • وجـوه العربة الثانية تبدو ملامحها فى وضوح • أيديهما هى الأخرى تلوح• وأصواتها تصرخ :

« النسر ملك الطيور •

« النسر شديد البأس •

العربة الأولى تستمر فى صراخها ، هتافهـا يختلط بهتـاف العربة الثانية :

« الأسـد ••

« النسر ••

« الأسـد ••

« النسر ••

« الأسـد •• النسر ••

الهتافات المتداخلة تختلط بايقاع القطـار الرتيب • الوجوه والأيدى تزداد تلويحا • الذعر يطل من عيون السيـدات •• قارىء الرواية يلاحظ الغبار الـكثيف الموازى لجسم القطار •• قطع الحصى

والقش تصفع وجهه ‥ القطار مندفع فى طريقــه دخانه الـكثيف يحجب وجه السماء ، الفلاحون المتناثرون فىالحقول يضعون أصابعهم فى آذانهم ‥ جاموستان تجريان فى انزعاج ‥ الفلاحون يحاولون ايقافهما ‥ القطار يبتعد وضجته تخفت ‥ فيعود الى الجاموستين هدوءهما ‥ القطار يختفى تماما ‥ والسحابة القاتمة التى خلفهـا يتقاذفها الهواء ‥ صوته من بعيـــد يصل واهنا ‥ لـكن قارىء الرواية يجفل عند سماعه ‥ عاود النظر حواليه · شاب يعتلى المقعد المجاور لمقعده ‥ يصنع بيده لحنا راقصا :

« هيه ‥ هيه ‥

الأجســام تتلامس وتتدافع ‥ الأقدام تخطو من جديد فى ثبــات · العربة الأخرى تردد الهتــاف · راكب هناك يعتلى كتفى زميل · استطاع على الفور أن يحفظ توازنه · لوح بمنديل أخضر مشيرا « فى ازدراء » نحو العربة الأولى :

« هيه ‥ هيه ‥

الأرض تهتز تحت عجلات القطار . راعى غنم يعبر بقطيعه قضبان القطار . القطار يصفر عن بعــد . الراعى يتنبه لقدومه . الأغنام متناثرة بين القضيبين ترعى الخضرة النابتة وسط الزلط والرمل . ضجة القطار القادم تهز الأرض تحت قدميه . ما العمل؟ ‥ نفس السؤال يردده قارىء الرواية ‥ نظراته تستجدى شيئا غامضا من العجوز ‥ الشيخ فى ذعر حقيقى ‥

« هيه ‥ هيه ‥

« هيه ‥ هيه ‥

لاتزال الأيدى تلوح فى عصبية شديدة · السيدات فى غاية الذعر . صرخت طفلة . الخطر الغامض يلوح متراقصا في سماء

العربة • العجوز يقف نصف وقفة • وقبضة قارىء الرواية تتكور••
لامفر •• لا مفر ••

« هيه •• هيه ••

« هيه •• هيه ••

القطار يصرخ • راعى الغنم ينظر حواليه فى ذعر وارتباك • القطار بوجهه الأسود الفاحم يطل عن بعد • الغبار يلف جسمه ويتراقص أمامه • الهواء معتم • الراعى يرفع عصاه يهش بها فى تخبط • الأغنام تجرى فى غير نظام • لا يزال الكثير منها وسط القضيبين • القطار يقترب مزمجرا ، متلويا كثعبان ، صوته كالفحيح ، وجهه الأكبر يقترب ويزداد اتساعا وسوادا •• وبعد؟• وبعد ؟ • العجوز يقف • قبضة الشاب على استعداد للعمل • الهتاف يتحول على نحو مثير :

« العبيط أهه •• هه ••

« العبيط أهه •• هه ••

« الحمار أهه •• هه ••

« الحمار أهه •• هه ••

القطار يقترب من حيث يقف الراعى • العصا تنزل على الأرض فى خبطات سريعة • الخرفان تجرى فى غير نظام • صراخ القطار يكاد يخلع قلبه • عيناه زائغتان • العجوز لا يجد ما يقوله ، يلوح بيده فى حركات خرساء •

« اسكت • اسكت • يا عبيط

« اخرس • اخرس • يا حمار •

صوت القطار يزداد زمجرة • الراعى يلوح بعصاه فى الهواء • لكن القطار يقترب •• وقع صوته كحجر رمى فوق صدره •• القبضات داخل القطار تلوح • الوجوه تتقابل • الغضب يملأ القسمات •• القطار يصرخ •• الراعى يتنبه لنفسه •• ابتعد عن القضيب •

موكبا العربتين يقتربان من المنطقة المكشوفة التى تفصل بين العربتين وتربط بينهما فى نفس الوقت •• قلب قارىء الرواية يدق بشدة •• العجوز على وشك أن يتحرك •• القطار على بعد خطوات•• الراعى يصرخ فى غنمه فى جنون وهو متخشب فى وقفته :

ـ هش •• هش ••

العجوز ينهض • يقفز فى خفة شاب • يقف على رأس موكب عربته •• لم يعد يسمع صوت هتاف ، لكن نظرات العيون تتحدث بما فيه الكفاية ، والقبضات الملوحة تزيد من حرارة النظرات • القطار على بعد خطوات من الراعى • الراعى يصيح بلا وعى : لا • لا • ابعد •

العجوز يجد صوته ليهتف فى ركاب العربتين مشيرا الى الارض:

ـ يا مجانين •

العيون تنظر الى حيث أشار • الارض تتراجع بسرعة شديدة تحت أبصارهم • تنسحب ، وتنسحب • صلابتها تذوب • تتحول الى صفوف مفتتة من الحصى والرمل والزلط • أعمدة التليفونات تتراجع ، لتهوى • الهواء العاصف يكاد يجذبهم • الدنيا تدور والحقول تلف وتنقلب• أغمض الركاب عيونهم وكذلك فعل الراعى• القطار يتجاوزه • العاصفة المحيطة بالقطار تكاد تجرفه • أغمض

عينيه فى استسلام • العاصفة تلقى فى وجهه وجسده كله بالحصى وقطع القش ، حاول الركاب أن يفتحوا عيونهم فامتلأت بالقذى :

ــ اعقلوا •

العرق يسيل من جباههم • أفواههم مفتوحة • نظروا لبعضهم البعض فى ذهول • ايقاع القطار يسمع رتيبا •• رتيبا •• الراعى يسترد وعيه بنفسه •• القطار ابتعد بما فيه الكفاية •• لم يصدق أنه حى •• نظر فى عجب • كيف ابتعدت خرافه عن القطار • تمتم يحمد الله • ولعن قارىء الصحيفة قلة العقل • وبدأ الركاب يعودون الى عربتهم •• وأخذت الضجة تخفت ، وتخفت حتى ساد الصمت •• صوت احتكاك العجلات بالقضبان يسمع أزيزه ، وحركة أذرع القاطرة الرتيبة تفرض ايقاعها الثقيل على الأذن ، والقطار يطلق صفيره أجش محشرجا •• النظرات تلقى من النوافذ •• أخذت البنايات تنمو متناثرة على جانبى الطريق •• المبانى تكبر ، وتكبر • السحابة القاتمة التى تغلف المدينة تنقشع •• العمارات العالية تلوح عن بعد •• المآذن والقباب ومداخن المصانع تنتصب فى الجو •• سرعة القطار تقل •• وتقل •• صوت احتكاك العجلات بالقضبان يعلو •• وايقاع أذرع القاطرة يزداد ثقلا •• أخذ انجالسون يففون، وبدأت الايدى تمتد الى الرفوف ، وتحت المقاعد ، وفى الممر •• الايدى تحمل الحقائب والامتعة •• صراخ الاطفال يسمع من جديد وسط الصمت •• السيدات يحملن أطفالهن •• والمدينة تسفر تماما عن وجهها ، فبدأت ترى النوافذ والشرفات •• ضجة القطار تزيد ، وأزيز احتكاك العجلات بالقضبان يسمع متواصلا ••

القطار يتوقف فى مبنى المحطة الضخم بجانب قطارات الخطوط الاخرى ، وهو يطلق آخر صفيره المحشرج • الامتعة تلقى من النوافذ • البعض يتعجلون النزول فيقفزون منها • الباقون يسيرون عبر الممر

فى صبر قلق . الزحام على الرصيف كثيف . النـازلون يتداخلون مع الذين يحاولون الركوب فى دوامة حقيقية .. صـخب النداءات الراكبين الجدد تطغى على صوت النـازلين الواهن .. النازلون من العربتين يختلطون .. ركاب القطار كله يختلطون بركاب القطارات الاخرى ليذوب الجميع فى زحام المحطة الـكثيف .. قارىء الرواية يتأمل الزحام .. لمح فجأة «جاره» العجوز فتذكره على الفور ، تابعه لحظة لكن العجوز يغيب عن عينيه وسـط الزحام . قارىء الرواية يتلفت حواليه لكن الملامح تختلط عليه وتتشـابه الوجوه .. صفير قطار حاد كالصراخ يوقظه من خواطره .. ليجد نفسه يسير فى فناء المحطة .. الأقدام من حوله تسرع فى صمت ، ومن خلفه.. يتصاعد دخان القطارات ويزداد قتامة وكثافة .. الدخان يمتد وينتشر حتى ليكاد يغلف المبنى الكبير كله برداء ضـبابى قاتم ، الزحام من حوله يخف وفناء المحطة يوشك ان يخلو الا منه قارىء الرواية يل فجأة كل ما حوله ، فيدير ظهره بحزم ـ لكل شىء ، ثم يعاود السير فى سرعة بينما صوت حركة أذرع القطار الذى حان موعد سيره، يتوازى ايقاعه الرتيب مع وقع خطواته المسرعة ، وهو يلتمس باب الخروج ، المؤدى الى المدينة الواسعة ..

١٩٦٥

القضية



- ١ -

أكان محقا فى موقفه ؟ ماذا يقول الآن هؤلاء الناس عنه ؟ نظر للمحصل وهو يغوص فى زحام العربة . الندم ينمو فى أعماقه . حاول الانشغال بشيء . بدأ يتأمل التذكرة . كيف السبيل لفهم رموزها وأرقامها ؟ .. « أتهوى المشاكل ؟؟ » . عادت المشكلة تلح عليه وانبثق المشهد فى ذاكرته بكل تفاصيله . الكلمات التى قالها للمحصل تدوى فى أذنه .. لكن .. لم أكن مخطئا . المحصل هو المخطيء . ليس معى سوى هذا الجنيه . انزل ؟؟ .. قهقهات ترن فى أذنه . زملاؤه فى المصلحة يتندرون عليه . « فلاح . هاها » . تحفزت مشاعره . مستحيل . لن أنزل . هز رأسه . نظر لمن حوله . « الناس لا تأتى الا بالشدة » أطل من النافذة ، وازدادت قدمه ثباتا فوق أرض العربة ، وعاد يتأمل التذكرة من جديد .. المحصل يستسلم في هدوء . سمع الكلمات الجارحة دون أن يرد . أين هو الآن ؟ لم يعثر له على أثر . زاد ندمه . لا يصح هذا بالفعل .. آه ، ثم ماذا لو تطور الأمر ؟ انسيت ؟ لمدة ثلاثة أشهر يجب أن تبتعد عن المشاكل . قرار تثبيتك بالمصلحة لم يصدر بعد . أف .. تابع حركة النازلين والصاعدين .. « كان يجب أن تحمل نقودا صغيرة . تذكر ذلك دائما » يده تعبث آليا بجيب بنطلونه الصغير . احمر وجهه . لو يعلم المحصل . لو يعلم هؤلاء.

ـ أعوذ بالله . وتقسم أن ليس معك سوى الجنيه ؟

ـ لكنى أحتفظ بها .

ـ تحتفظ بها ؟

ـ آ .. كتذكار .

ـ جائز .

ـ عليها شعار مناسبة وطنية . حتى أنظروا .

ـ ولو يا أخى . سهل أمورك .

المحصل يصيح :

ـ وماذا يهمه هو ؟ لابد أن يشاغب .

هتف فى غيظ :

ـ أنا حر . أنا حر .

أخرجته اهتزازة مفاجئة من دوامته . هل سمعه أحد ؟ لا أحد ينظر اليه . آ .. حقا .. ما سر رموز هذه التذكرة ؟ .. عشرون مليما . باقى ثمانية وتسعون قرشا .. أخ .. ماذا لو أنكر المحصل « الباقى » ؟ .. قد ينسى . ما العمل ؟ .. هـؤلاء شاهدون . أطرق قليلا . أصوات غاضبة ، وتماسك بالأيدى ، مشادة عنيفة ..

ـ « الأفندى » صاحب الجنيه . انت يا أخ .

أفاق من هواجسه .

ـ نعـم ؟

أصبح المحصل بجانبه .

ـ جنيهك هذا ؟

عدنا لقلة الذوق ؟ فى لحظة خاطفة مرت به انفعالات وأفكار شتى . ظل ينظر لورقة النقد فى دهشة . عادت ضحكات زملائه فى المصلحة ترن . نظرات المحصل تحرك سخطه .. « ولهجته أيضا كانت جافة » . ماذا يريد هذا الوغد ؟ .. خرج صوته كقذيفة :

ـ نعم . يلزم شيء ؟

نظرات المحصل لا تفارقه . قال ببرود :

ـ هات غيره .

ـ هات غيره ؟ لماذا ؟

جذب الموقف بعض نظرات الفضول . قال المحصل بتؤدة ، وبلهجة من يلمح الى أمر لا يعرفه سواهما :

ـ لا شيء . فقط هات غيره .

أسئلة من كل جهة :

ـ ماذا ؟

ـ لماذا ؟

الأمر غير مفهوم . المحصل لا يزال يرمقه . حدقتا عينيه متسعتان . قلب وجهه فى حيرة .

ـ هيه ؟

ـ السبب ؟

ضغط المحصل على كل حرف :

ـ فقط . هات . غيره .

تدخل المحيطون بهما من جديد :

ـ ماذا هناك ؟

ـ قل له السبب .

قال المحصل بنفس البرود :

ـ هو يعرف .

صاح بحدة :

ـ أعرف ماذا ؟

« على أنا ؟ » . ضاق بنظرات المحصل . لكنه صمت فى حيرة . صاح المحصل بصوت نافد الصبر :

ـ هات غيره أحسن لك .

ـ أحسن لى ؟ .

ـ نعم . تحب أن تذهب الى القسم ؟

ـ قسم ؟ بأى سبب ؟ حرامى يا مجرم ؟

خرج المحصل عن هدوئه :

ـ لا . مزيف . على أنا ؟ جنيهك مزور .

فتحت الأفواه وسيطر الصمت والترقب . نادى المحصل فى الدرجة الأولى :

ـ الأستاذ صاحب الخمسة جنيه . ماله الجنيه ؟

ـ مزيف .

دار الهمس . نظرات الفضول تصوب نحوه من كل من حوله . شد الموقف انتباه الجميع . خطر غامض يلوح فى أفق العربة . لابد أن « يدافع » عن نفسه ؟

ـ الجنيه لا يخصنى .

ـ إسمع . أمام هؤلاء . قلت جنيهى أم لا ؟

رد على الفور وهو يعلم أنه كاذب :

ـ لا .

ـ قال جنيهى أم لا ؟ أنتم شاهدون .

ـ نعم .

ـ قال .

هذه الكلمة اللعينة . كيف أفلتت منه ؟

ـ أثبت أنه جنيهى .

ـ اذن لابد من القسم .

اقشعر بدنه . القسم ؟ يا حفيظ .. لا ينسى يوم ذهب بجدد بطاقته الشخصية .. والآن ؟ .. لا داعى للمتاعب .. ليذهب الجنيه فى داهية ..

ـ هيه ؟ ماذا قلت ؟

امتدت يده بقطعة النقد الفضية . انتزعها المحصل وتأملها .. قال بنغمة لها مغزاها :

ـ يا أخى . ما دامت هذه معك من البداية ، لم المتاعب ؟ .. خذ جنيهك .

لم تمتد يده .

ـ أمسك جنيهك . ارم بلواك على غيرنا .

ـ احفظ لسانك .

ـ لسانى « ايه » يا أخ ؟ لم تجدوا سوانا ؟

ووجه المحصل حديثه للجميع :

ـ فى هذا الأسبوع وحده . ضاع على ثلاثة جنيهات .. وكل يوم واحد من زملائنا يقع فى نفس المطب . خذوا بالكم .

شل لسانه عن الحديث . الجنيه فى يده كجثــــة قتيل . التعليقات الهامسة تعلو وتتناهى لسمعه :

ـ نفس الحكاية مع واحد زميلنا .

ـ ابن عمى أول أمس .

ـ لابد أنها عصابة خطيرة .

ـ ومنظمـــة .

قهقه زملاؤه ودقت أمه الطيبة على صـــدرها . اختلطت الضحكات بالدعاء الساذج :

« ـ هذا الساهى ، مزيف ولا ندرى ؟

« ـ الهى يا بنى يكفيك شر التهم الباطلة ..

« ـ وكان يغضب لكرامته . ها ها ..

« ـ وشر الخبىء فى الغيب .

التعليقات تعود فتفرض نفسها على سمعه :

ـ لابد من اعدامهم .

ـ الاعدام ـ فى رأيى ـ لا يكفى .

« أرم بلواك على غيرنا » . صوت المحصل لا يزال يدوى فى أذنه . العرق يكاد يذيب الجنيه في كفه . نظرة شرسة واسعة تكاد تبتلعه . أصوات تتردد :

ـ امسكوا المزيف الخطير .

أندفع يجرى . الاقدام تدب خلفه . صاح في فزع :

ـ ليس جنيهى .

الاقدام تكثر ، والهمس يعلو يعلو ..

ــ كانت معه قطعة بعشرة قروش وأصر على فك الجنيه .

ــ قد يكون منهم . لم لا ؟

ــ هو منهم ولابد .

من يقول ذلك ؟ الملامح تختلط عليه . هل قيل شيء من ذلك حقا ؟ العرق يتصبب من كل مسامه . النظرة البشعة الواسعة لا تزال تتهيأ لابتلاعه . « تخلص من الجنيه . تخلص منه » .. ووجد نفسه يشق طريقا للنزول .

ــ أين تذهب ؟

يد خشنة تقبض على ذراعه . تأمل الملامح الصارمة والجسم العملاق . العيون الواسعة نفسها . رعب شديد . انهــــار كل شيء . الأصوات تعود لتردد عالية صارخة :

ــ مزيف . مزيف . مزيف .

صوت يهمس فى الحاح :

ــ تخلص منه . القه . ارمه .

أسرعت يده الى النافذة . أطبقت عليها اليـــــد الخشنة فى آخر لحظة .

ــ القسم يا « ريس » .

ــ انا .. أنا .. أ .. لست مزيفا .. والله العظيم ..

العملاق لا يبالى بقسمه . اليد الأخرى تعبث بجيـــوبه . زملاؤه فى المصلحة يضحكون :

ـ كرامته . ها ها ..

اليد الخشنة لا تزال تبعث بجيوبه . « تنتهك حرمته ».. انبثق الغضب فى أعماقه ، وتذكر فجأة ما يستند اليه :

ـ لا تفتش .

وصمد لأول مرة للنظرات الواسعة . وأصل احتجاجه بعد فترة صمت .

ـ . التفتيش غير « قانونى » . هل معك أذن من النيابة ؟

وضجت العربة كلها بالضحك .

- ٢ -

لفت وصوله أنظار الجمهرة الموجودة بفناء القسم . واتجهت نظرات الفضول نحو « المتهم » الذى أحيط على الفور بحراسة مشددة ، فى طريقه لداخل القسم ..

« لابد أنه خطر » .

اختلط ركاب العربة بجمهرة الموجودين بالقسم ، واشتد اللغط :

ـ من هـذا ؟.

ـ واحد من العصابة .

ـ عصابة ؟

ـ عصابة التزييف .

ـ آ ..

عبثا ينكمش داخل جلده ، « فالناس » لابد الآن قد رأوه . رأسه مطأطأ . خطواته سريعة ، والاسئلة من ورائه تنتشر كالنار:

ــ من هذا ؟

ــ زعيم العصابة .

ــ ضبطوا معه مائة جنيه .

ــ مائة ؟ ألف .

ــ كاد يقتل الضابط الذى أمسكه .

ــ قاوم فرقة كاملة .

ــ أخطر واحد فيهم كلهم .

ــ .. شكله ليس غريبا على ..

ومسحت الأكف الجباه ، وبدأ الموجودون يتذكرون شيئا غاب عنهم .

ــ .. وانا أيضا .

اندفعت أقدام نحو حجرة التحقيق ، فوجىء الصول المحقق بأصوات تصيح :

ــ هو . هو .

ــ هو بعينه .

ــ هو يا حضرة الضابط .

ــ هو يا حضرة الضابط .

صاح الصول :

ــ هو من ؟

ــ الذى كان يأتينا بالجنيهات الزائفة .

ورمقت احدى الموجودات المتهم « بمـا تبقى لها من نظر ». دقت على صدرها :

ـ يا ابن الحرام . تستحل فلوس اليتامى . حرام عليك .

ـ مالك يا نعيمة ؟

ـ مالى يا حضرة الضابط ؟ كل يوم يا سـعادة البيه علبة سجاير ويفك جنيها جديدا .. هو بعينه .

وزاد اللغط فصار ضـجيجا ، وتذكرت كل الذاكرات « الضعيفة » ، صورة المزيف الخطير الذى لعب عليهم .. ولم يكتف الأمر على جمهرة مقدمى البلاغات فى القسم ، اذ اتضح لثلاثة من ركاب نفس الأتوبيس ، أنه لابد وأن يكون الشـخص الذى كانوا يبحثون عنه من زمن ـ لنفس السبب ..

- ٣ -

كان يستمع في ذهول لأقوال العملاق الذى قبض عليـه ، والذى تبين أنه مخبر يدعى عبد العليم ، وكذلك لأقوال المحصل وبقية الشهود ، ومع كل كلمة تقال ، كان الأمر يكشف عن شيء مرعب خطير يحدق به شيئا فشيئا . كانت عيناه على سـعتهما لا تريان سوى ذلك الخطر المجهول الذى يتراقص فى جو غرفة التحقيق . وبين لحظة وأخرى كانت توقظه كلمة من شاهد أو نظرة صاعقة من نظرات الصول المحقق .

فوجىء فى النهاية بصوت الصول يصيح . لابد انه سأل قبل ذلك مرات ، نفس السؤال :

– اسمك ؟

– يوسف حسن عبد الله .

– ارفع صوتك .

– يوسف حسن عبد الله .

– صحيح هذا يا ولد ؟

ماذا يقول ؟؟

– انطق .

كل ما قيل قد حدث بالفعل ، لكن ، ما معنى هذه التصرفات كلها مجتمعة ؟ . . قال باستسلام ، هربا من النظرات النارية :

– نعـم .

تمتم المحقق فى غيظ :

– وقعتم أخيرا يا أولاد الكلاب .

دعوات أمه الساذجة تختلط بضحكات زملائه ، والرعب يكاد يشل أطرافه . وجد أعماقه كلها ترتجف .

– انت زميله ؟ لا تسمع ؟

– زميل من ؟

– أحمد عبد المجيد سالم . زميلك ؟

– زميلى ؟؟

– أعقل يا ولد أحسن لك .

– والله لا أعرفه .

وقلب يديه فى حيرة . تراجع للخلف ، والمحقق ينفجر صائحا ، وهو يهم بالوقوف فى حركة غاضبة :

ــ تلعب علينا نحن أيضا ؟ زميلك أم لا ؟

قال باستعطاف :

ــ والله العظيم ..

ــ كن عاقلا قلت لك . لا تكن عنيدا مثله . فى النهاية (هو) اعترف .

هرب من نظرات المحقق وساد صمت ثقيل . بدأ صوت خافت يهيب به أن يتحرك قبل فوات الأوان .

ــ هيــه ؟

ــ والله العظيم لم أفعل شيئا .

صعد الرجل فيه بنظراته الغاضبة الملتهبة :

ــ لم تفعل شيئا ؟

ــ نعم . والله العظيم .

تصنع الرجل الهدوء وطول البال :

ــ الجنيه ليس جنيهك ؟

ــ لا .

ــ لا ؟ .. لماذا أخذته اذن ؟

ــ ...

ــ ولماذا أصرارك على فك الجنيه ومعك قطعة العشرة قروش؟

ـ كنت محتفظا بها .

ـ لمـــاذا ؟

شعر بسخف الرد ، لكنه لم يجد منه مناصا :

ـ كتذكار . عليها شعار مناسبة وطنية .

ـ اه ؟ ماذا تقول ؟

هرب من نظرات الصول الثابتة .

ـ احتفظ بها كتذكار .

ـ ماذا تقول يا أخ ؟

ـ والله العظيم .

ـ كذا ؟

ثم عاد المحقق يتصنع الصبر من جديد :

ـ اذن ، لماذا اخذت الجنيه ؟

ـ ...

(بدأ صوت المحقق يعلو مع كل سؤال)

ـ لماذا خفت عندما تحدث المحصل عن الذهاب الى القسم ؟

ـ ...

ـ تذكرتك كانت لنهاية الخط ؟

ـ نعم .

ـ لماذا نزلت قبل منتصفه ؟

ـ ...

ـ لماذا حاولت القاء الجنيه من النافذة ؟

ـ ...

ـ وهؤلاء الشهود ؟ ٠٠ نعم ٠ وهؤلاء الشهود ؟ (وصاح) ٠٠ أسمع . ستعترف أم لا ؟

ـ والله العظيم لم أفعل شيئا ٠

هب المحقق واقفا :

ستعترف أم لا ؟

ـ والله العظيم ٠٠

اتجه اليه الصول والشرر يتطاير من كل جسده ٠

ـ والله العظيم ، والله العظيم ٠ تقسم أنت أيضا بالله ؟ تعرفه ؟ تعرفونه يا أولاد الكلاب ؟ تعرفونه يا مجرمون ؟

وتفجر حقد الرجل ، وتملكه الغضب المجنون من هؤلاء الذين يعملون ما يحلو ثم يتمسحون بالله ٠ وانهالت الصفعات والركلات ، وعبثا يرفع يوسف يده ليحمى جسمه ٠

ـ ٠٠ ثلاثة أشهر يا أولاد الكلب ٠٠ لانملأ عيونكم ؟ ليست بالبلد حكومة ؟ خلى الجو لكم ؟ ٠٠

تهدل ذراعا يوسف الى جانبه وترك جسده مكشوفا لضربات الرجل الهائج :

ـ ٠٠ وتقسم بالله ؟ تقسمون بالله تعرفونه ؟

الضربات تكاد تسحقه ٠ تحدث ٠ قل شيئا ٠ الناس لا تموت هكذا دون ضجة . دون كلمة .

ـ لا تضرب ٠ لا تضربنى ٠ الضرب هنا ممنوع ٠

تجسد غيظ الرجل فى لكمة قوية :

ـ أى ٠ الضرب ممنوع ، قلت لك ٠

ووجد يوسف صوتا عنيدا ينمو ، وتذكر ما غاب عنه . مع الركلة الجديدة قال المحقق بغيظ :

ـ ومن منعه ؟

ـ القانون .

صاح الرجل كمن لدغه ثعبان :

ـ القانون ؟ القانون تقول ايا ابن ال .. ؟

وسب أمه بكلمة نابية وعاد يركله وهو يردد :

ـ القانون . الذى وضع القانون جالس على مكتبه . لم يأت هنا . لا يعرف الأشكال التى نتعامل معها (واشتد هياجه) . القانون لم يوضع لأمثالكم . لا يعرفكم . القانون للشرفاء . لضحاياكم .

ازداد الصوت الهامس فى أعماق يوسف عنادا . قال بصوت تقطعه التشنجات :

المتهم برىء .. الى أن .. تثبت .. ادا .. نته .. هذا .. حكم .. القانون ..

ـ أشكنا اذن .

ـ هناك نيابة . سأقول .. ضربونى ..

أمسك الصول رقبة يوسف بكلتا يديه :

ـ أقتلك ؟

تدارك عبد العليم الموقف . أبعد الصول عن يوسف .

ـ تقتله فى غضبك . يحسبونه علينا واحدا ككل الناس .

وقدم اليه سيجارة بدأ ينفث دخانها بغيظ .

ـ تصور يا عبد العليم • يتحدث هو الآخر عن القانون •

طيب عبد العليم خاطره واتجه الى يوسف ينصحه ، بينما يوسف يبكي متشنجا :

وانت أحمد ربنا أن جئت هنا . هنا أرحم .

قاوم يوسف تشنجاته • كان الشعور بالمهانة والاهانة قد تحول عنده الى عناد طاغ لا يبالى بشيء :

ـ المعاملة هنا سيئة • غير «قانونية» •

هم الصول بمعاودة الهجوم عليه • حال عبد العليم دونه وما يريد • صاح الصول وجسم عبد العليم يمنعه عن يوسف :

ـ سيئة ؟ كنت تظنّ نفسك ذاهبا للسينما •• الأقسام كلها هكذا (وعاد الى مكتبه بينما صوته يعلو مؤكدا) فى السند • فى الهند • كلها هكذا • جاجارين عندما ذهب الى القمر وجد الاقسام هناك هكذا •

اندفع يوسف يقول بعناد طفولى :

ـ جاجارين لم يذهب الى القمر • دار فقط حول الارض •

ـ يعنى أنا كذاب ؟

وهب واقفا من جديد ، وخطا نحوه خطوات غاضبة :

ـ جاجارين ذهب الى القمر • ذهب ياولد • قل ذهب •

ـ لم يذهب •

ـ ذهب •

ـ لم يذهب •

ـ قلت لك ذهب ـ تكذبنى ؟

وعاد ينهال فوقه ضربا ، ووجد عبد العليم أن المتهم « نطول لسانه » لا يستحق سوى الادب ٠

ظل الصول يكرر مع كل ضربة :

ـ ذهب ٠ ذهب ٠ ذهب ٠ قل ذهب يا ابن ال ٠٠

وسقط يوسف فاقد الوعى ، وأمر الصول بالقائه فى الحجز ، لحين حضور الضابط المختص ٠ ثم بدأ يسـترد أنفاسه ، ويهنىء عبد العليم ـ وهو يبتسم ـ بالترقية المنتظرة ٠

ـ ٤ ـ

ابتسم الضابط ابتسامة صافية كبيرة عندما رآه ٠

ـ تفضل ٠

وأشار الى كرسى أمام مكتبه ٠ وازاء الحاحه فقد جلس يوسف غير مصدق ٠ استمر الضابط يكتب ويقلب الاوراق التى أمامه لفترة كان يوسف أثناءها يختلس النظرات اليه ٠ استراح لقسمات وجهه تأمل شاربه الدقيق المرسوم فى عناية ٠ استرد أنفاسه ، فرك كفيه عدة مرات ، ووجد نفسه يرتجف وهو يشعر ببرد خفيف ، وتركزت نظراته على شعر الضابط الفاحم ٠ ترى ٠ ماذا يجول برأسه هو الآخر ؟ دعوات أمه تملأ سمعه ، وأدلة كثيرة ترد على ذهنه تؤكد له « براءته » ٠

ـ أهلا بالرجل ٠

ابتسم فى حياء ، وهم بالوقوف ٠

ـ اجلس ٠ اجلس يارجل ٠

جلس على حافة الكرسى ٠ عبثت يد الضابط بأحد جيوبه ٠

ـ سيجارة ؟

انتفض واقفا فى شعور عارم بالجميل ٠

ـ شكرا ٠ لا أدخن ٠

نظر اليه الضابط نظرة لم يلحظها يوسف ٠

ـ خذ سيجارة ٠

ما هذا ؟ آ ٠٠٠ لا بد أنهم اكتشفوا براءته ٠ استسلم لمشيئة الضابط ٠ نظر الى عينيه ٠ أوحى له جو الطمأنينة بأن يمزح :

ـ هل يسمح بالتدخين فى السجن ؟

ـ اطمئن يارجل ٠

الله ! لماذا جاء هذا القول على لسانه ؟ كيف يمكن أن يفسر دوافعه ٠ عاد الضابط ينشغل بأوراقه ٠ قال وهو منهمك :

ـ واسمك ؟

ـ يوسف حسن عبد الله ٠

ـ أهلا ، أهلا ٠

ابتسامة الضابط الصافية ولهجته المرحة أكدتا له صدق مادار بخاطره ٠ دق الضابط جرس المكتب ٠ قال للجندى حارس حجرته:

ـ اثنين قهوة مضبوط ٠

لمن ؟ لى أنا ؟ ماهذا ؟ ٠٠ لكن ، لا يجب أن يعترض ، قد

لا تكون القهـــوة من أجله فيحرج بذلك حضرة الضابط . استراح تماما للضابط وعاد يسمع دعوات أمه ووثق تماما من براءته وعلى الفور ، شـــعر بآلام الضرب المبرحة ، وتجسد ماحدث له ، فكادت الدموع تطفر من عينيه ، وشعر باختناق صوته ، وبان كل هذا فى ملامح وجهه المعبرة .

ـ مالك ؟

ـ تصور ياحضرة الضابط . ضربونى قبل مجيئك .

قال الضابط مستنكرا :

ـ ضربوك ؟

أردف يوسف ليبين للضـــابط أنه يعرف تماما كل حقوقه :

ـ وسيادتك تعرف أن ضرب المتهمين غير «قانونى» .

صاح الضابط فى الحارس :

ـ ناد الصول حجازى .

دخل صبى البوفيه يحمل القهوة . وضع الفنجانين على المكتب .

ـ اشرب يايوسف .

ـ العفو يا أفندم .

ـ اشرب يارجل . شىء بسيط .

هذا الرجل الطيب . شعر يوسـف بأنه يحبه حبا حقيقيا ، حبا كبيرا . كيف يمكن أن يرد جمائله أو أن يعبر عن شعوره نحوه؟ قطع أفكاره دخول الصول حجازى . صاح الضابط وهو يشير نحو يوسف .

ـ تضربونه ؟ فوضى هي ؟

طأطأ الصول رأسه • لذ ليوسف أن يرشف من فنجانه وهو يرمقه بتشف « رئيســه من سن أولاده » • ضرب الضــابط على مكتبه بقوة •

ـ لا تعرفون أن الضرب هنا غير «قانوني» ؟

لم ينبس الصول بكلمة ، وابتسم الضابط ليوسف ، ثم عاد يصيح في الصول وهو يضرب كفا بكف :

ـ تظنون كل من يأتي هنا لا دراية له بالقانون • ها • تفضل وسنرى •

اتجه الضابط ليوسف بعد خروج الصول •

ـ أغبياء • لا يعرفون أنهم بهذه الطريقة «يطفشون» الزبائن منا •

وضحكا عاليا • ترك الضابط أوراقه ، وبدأ يتحدث الى يوسف بلهجة تتغير نغماتها حسب المعنى الذى يريد التأكيد عليه :

ـ اسمع يايوسف • أبغض صفة في الانســان هى الغباء • لا تتصور • الرجل الغبى أكرهه تماما • دائما يجلب المتاعب لنفسه، ولغيره •• لكن •• الرجل الذكى ، أحبه ، وأقدره بغض النظر عن أى شيء ••

سعل يوسف عنــدما تسرب بعض الدخان الى صدره • رمقه الضابط بثبات :

ـ تبدو فعلا كمن يدخن لأول مرة •

ـ صدقني حضرتك • أنا لا أدخن •

زر الضابط على عينيه • رمق يوسف بنظرة عميقة •

ـ على كل يا يوسف • أنا يعجبني الرجل الذكي •

ثم غير من لهجته :

ـ •• وأنت يا يوسف ذكي •• ذكي جدا •• تصور • لو وجدتك لا قدر الله غبيا •• كنت سأغضب •• سأغضب جدا •

كان ذهن يوسف مشغولا باعداد دفاعه • نادى الضابط حارس الحجرة وأشار له اشارة غامضة ، واتخذت ملامحه على الفوز سمتا مغايرا ، وقال بنبرة جديدة :

ـ •• لكن الرجل الغبي كما قلت لك ، أنفر منه • أكرهه • يرفض الفرصة التي أمامه • الرجل الذكي دائما يقدر الظروف •• يقدرها بفهم •• يريح ويستريح •• وأنا لا أساعد الا الاذكياء •• أقول هذا وفي ذهني نموذج لانسان غبي ••

ونظر في عيني يوسف :

ـ •• أنت تعرفه •

وظل ينظر لعيني يوسف في ثبات لمدة ، ثم قال بتؤدة :

ـ أحمد عبد المجيد سالم •

قال يوسف بتردد ذاهل :

ـ لا يافندم • لا أعرفه •

ابتسم الضابط وقال بلهجة حانية ، ونظراته لا تفارق عيني يوسف •

ـ هيه يا يوسف • لا تعرفه ؟

تذكر يوسف كأنما هبط عليه الوحى :

ـ آ ٠٠ المزيف الذى أمسكتموه ٠

أتى الضابط بحركة مرحة بيده وقال برقة :

ـ يا أخى ٠٠ هذا أنت تعرفه ٠

وفتح الباب ، وفوجىء يوسف بالحارس يقود رجلا غير حليق الذقن ، نصف نائم ٠ ويطل الارهاق من كل جسده وملابسه ٠ قال الضابط مكملا حديثه :

ـ وهذا هو بنفسه يا عم ٠

نظر يوسف الى القادم من جديد ٠ وراقب الضابط خلجاتهما جيدا ٠ ساد الصمت لحظة ، ثم وجه الضابط حديثه للرجل المرهق، وهو يشير الى يوسف :

ـ تعرفه ؟

قال صوت استيقظ لتوه من سبات عميق :

ـ لا يافندم ٠

صاح الضابط :

ـ لا تزال غبيا ؟ على أنا ؟ لا تعرف يوسف ؟

ـ أعرفه يافندم ٠

ـ يا غبى ٠ ما الداعى للانكار ؟

دق قلب يوسف بعنف ٠ انفتح فمه ٠ هم بالكلام لكن جرس التليفون أوقف محاولته ٠ تناول الضابط السماعة بسرعة ٠

ـ آلو ·· من ؟

وانتفض واقفا :

ـ نعم سيادة الحكمدار · أنا عادل ·· أيوه يافندم ·· قدامى الآن ·· متلبس يافندم ·· حاول رمى الجنيه عند الاشتباه فيه ·· كان معى فقط الشاويش عبد العليم ·· معلوماتنا دقيقة يافندم ·· فعلا ·· أول مرة تعمل العصابة على خط ١٢٤ ·· نعم يافندم ·· يعرفان بعضهما ·· البركة فى توجيهاتكم ··

ونظر الى يوسف مبتسما :

ـ ·· يافنـــدم فى حكم المعترف ·· أذكى من زميله ويقـــدر الموقف ·· سأساعده حتما يافندم·· أوامر سيادتكم ·· الحمد لله ·· آن الاوان ·· كفى ثلاثة شهور ·· حالا يافنـــدم ·· حالا ·· مع السلامة ··

وشهق الضابط بعمق وهو يضع السماعة · قال ليوسف وهو يجفف عرقه بمنديل أنيق :

يا سيدى : الحكمدار : ومدير الأمن ، والمحـــافظ ، والداخلية كلها تريد أن تراك ··

خرج يوسف من ذهوله · قال والدوامة تدور به :

ـ لكن ، ياحضرة الضابط أنا لم أفعل شيئا ·

تغيرت سحنة الضـــابط على الفور · احمرت نظراته · قال بغضب :

ـ ماذا تقول ؟؟

كرر قوله مطأطأ الرأس · صاح الضابط :

ـ من أنت اذن ؟

ـ ياحضرة الضابط أنا موظف بمصلحة الأ ...

ـ وهذا دليل كاف على براءتك ؟ قف وانت تكلمنى «صنف» لا يأتى بالذوق .

واتجه الى الرجل المرهق :

ـ تعرفه ؟

ـ نعم يا فندم ، يوسف .

ـ يوسف ماذا ؟

ـ يوسف .. آ .. آ ..

ـ يوسف حسن عبد الله . ادع السذاجة والعبط . زميلك ؟

ـ لا يا فندم .

صاح الضابط بحدة :

ـ زميلك ؟

ـ نعم يافندم .

اتجه الى يوسف :

ـ هيه ؟

ـ والله يافندم لا أعرفه .

ـ يبدو أنك غبى أنت الآخر .

وهرش رأسه وصمت قليلا ثم قال :

ـ دعنا منه . كان الجنيه جنيهك أم لا ؟

قال باستسلام :

ـ نعم .

ـ مصدره ؟

ـ لا أتذكر .

ـ لماذا حاولت التخلص منه ؟

ـ ...

ـ لماذا أنكرت فى البداية أنه يخصك ؟

ـ ...

ـ واصرارك على فك الجنيه مع وجود عملة فضية فى جيبك ؟

ـ ...

ـ وشهادة الشهود ؟ وتعرف الناس عليك ؟

ـ ...

اتخذ حديث الضابط لهجة تقريرية :

ـ التهمة ثابتة ولا داعى للانكار . كن ذكيا . هيه ؟

ودق جرس التليفون من جديد :

ـ آلو ..

ورق صوت الضابط ومحت الابتسامات العريضة الملامح الصارمه :

ـ أهلا أهلا .. نعم ياشوشو .. عارف .. من ثلاثة شهور .. كنا مشغولين فى قضية التزييف .. الحمد لله .. الله يبارك فيك .

ومسح بيده شاربه الدقيق ، وعبثت أصابعه بشعره الفاحم:

ــ ٠٠ كان معي جندي واحد ٠٠ المكافأة ؟٠٠ طبعا ٠٠ لكن أهم شيء في رأيي ٠٠ اغاظة مدحت وشرف وصـــادق وغيرهم ٠٠ وغيرهم ٠٠ لا تعرفين ٠٠ كانت مسألة حياة أو موت لكل منا ٠٠ هه ؟ ٠٠ عقد الصيف الماضي ؟ ٠٠ ماله ؟ ٠٠ مزيف ٠٠ فذاك ٠٠ غيره ، وغيره ٠٠ وبالطو أيضا ٠٠ أوامرك ٠٠

واتــكأ بكرسيه الى الخلف حتى لامس الجــدار ، ومد ساقيه فوق المكتب ، وعادت يده تعبث بخصلات شعره ، ونظر الى يوسف نظرة جانبية :

ــ لا أبدا ٠٠ عاقل جدا وذكي ٠٠ صدقيني ٠٠

ولم يعد يوسف يســمع شـــيئا ٠ وبدأ كابوس رهيب يكتم أنفاسه ، بينما نظراته لا تفـــارق «زميله» لكن الآخر كان مغمض العينين ، قاتم السحنة ٠

ــ هيه ؟ ستعترف ٠

كان قد تذكر الحائط الوحيد الذى يستند اليه :

ــ يافندم « القانون » صريح في ٠٠

ــ اه ؟ ماذا تقول ؟؟ اسمع ٠٠

وغادر الضابط مكانه ٠ رسم حلقة بسبابة وابهام يده اليمنى٠ قال مؤكدا ما يقول بأصابعه الثلاثة :

ــ سأتركك وحدك ٠ خمس دقائق تفكير ٠ شاور عقلك ٠

ودفع الرجل المرهق أمامه وواصل حديثه ليوسف :

ــ لا تكن غبيا مثله ٠ كن عاقلا ٠

وضغط على مخارج ألفاظه وهو عند الباب :

ــ واذا لم تعقل يا يوسف ، سيحقق معك الصول حجازى .. فاهم ؟

- ٥ -

ظل واجما لفترة ــ خيلت اليه ــ طـــويلة . كانت الأمور فى ذهنه غامضة متشابكة . ماذا حدث ؟ وماذا يراد منه ؟ أمامه مهلة خمس دقائق ليفكر ثم ليقرر بكامل « حريته » ما سوف يقول . ماذا يحدث فى هذا العالم ؟ أيقسم لنفسه أنه ليس مزيفا ؟ لكن ما دليله ؟ ألأنه لا يذكر أنه لم يزيف يكون بالفعل بريئا ؟؟ .. ثم ، ألا يمكن أن تكون الذاكرة قد خانته ؟ لا يزال يذكر قصـــة الرجل الذى فقد ذاكرته فنسى منزله ، وزوجته وأولاده ، ونسى أيضا من هو . لابد أن يكون بالفعل مزيفا والا لما حدث كل ما حدث . وما المانع أن يكون كذلك وكل اصابع الاتهام تشير اليه ؟ ثم ما الفرق ؟ كل شيء ككل شيء . تلاشت دعوات أمه وضحكات زملائه . ثمة جريمة ولا بد لها من فاعل . اعترف يا يوسف يسترح رجال الأمن ، ويقف التزييف ، ويسترد الضحايا أموالهم ، ويشتر عادل هدايا خطيبته . اعترف يا يوسف ، أم تظن عظامك قضبانا من حديد ؟

وشعر بصوت العناد الذى واجه به الصول حجازى يطل من جديد ، وبروح جبارة تدب فيه ، تهيب به بأن يقول لعادل كل ما يشاء ، وليبر ، ماذا ستكون نتيجة ذلك على مر الايام .

وبدون أدنى تردد ، طرق الباب ، وطلب من الجندى أن يستدعى الضابط على عجل وبدأت تصل الى مسامعه دقات قلبه .

- ٦ -

قال دون مقدمات :

ــ يافندم الجنيه كان يخصنى ٠

ــ لا ٠ لحظة من فضلك ٠

أسرع الضابط يستدعى جنديا ليدون الاعترافات ٠

ــ اسمك ؟

ــ حسن يوسف عبد الله ٠

ــ عملك ؟

شــاء ــ مع كل ما قرره ــ أن يبقى شيئا من « وجوده الطيب » ٠ قال بعد تردد :

ــ لا أعمل ٠

ــ قلت انك موظف بمصلحة ٠٠

ــ كنت أكذب ٠

واستمرت الاسئلة التمهيدية التى أجاب عليها جميعا بصدق عدا السؤال الخاص بموطنه الأصلى ٠

ــ لماذا كنت ذاهبا الى الجيزة ؟

ــ كنت عائدا من شبرا ٠

ــ ماذا كنت تفعل هناك ؟

ــ لا شيء ٠

ـ تركب الاوتوبيس اذن دون هدف ؟

ـ هذا ما حدث ·

رفع الضابط صوته وقال بلهجة تقريرية وبحزم :

ـ لا يا يوسف · قلنا لا داعي للف والدوران · ركبت الاوتوبيس لتفك الجنيه ·

« هذا صحيح على نحو ما » · أجاب يوسف بعد برهة من التفكير :

ـ نعم ·

ابتسم الضابط وقال برقة :

ـ هكذا نستطيع أن نتعاون · ثق ، سأعمل كل ما أستطيع لمصلحتك · سيجارة ؟

« ما المانع ؟ » · أشعلها له الضابط · ترك التحقيق جانبا وقال مازحا :

ـ اسمع يا يوسف · يبدو أن هذه أول مرة تقوم فيها بالتزييف ، لذلك فأنت مضطرب · شيء في الأمر يخجلك ·· لكن اطمئن ·· لست أول من يقبض عليه بهذه التهمة ولن تكون بالطبع الأخير · دائما أبدا كان هناك مزيفون · والعيب ليس عيبكم مطلقا · عيب الأغبياء السذج ·

(وهتف) مقدمي البلاغات ·· (وضحك) ·· الحمير ··

ونفث نفسا من سيجارته ثم قال مواصلا مزاحه :

ـ ·· وبيني وبينك يا يوسف · مادام هناك حمير، فسيوجد دائما من يركبها ·

ثبت يوسف نظرته فيه لأول مرة . قال بعد فترة صمت :

ـ ممكن أجلس ؟

ـ آ .. لا مؤاخذة . تفضل .

وجذب يوسف نفسا عميقا من سيجارته وبدأ الصوت العنيد يزداد الحاحا .

ـ توزعها لحسابك أم لحساب غيرك ؟

ـ لحسابى .

ـ شأن الاذكياء دائما . بالمطبعة أم باليد ؟

ـ باليد .

ـ أنت ماهر اذن فى الرسم .

ـ تقريبا .

بدأ الضابط يتمشى فى الغرفة . يوسف يرمقه بنظرات ثابتة . ألقى الضابط نظرة من النافذة المطلة على حديقة القسم . عاد وهو يحك جبهته .

ـ ما رأيك يا يوسف فى مئات البلاغات التى وصلتنا ؟

ـ بعضها صحيح وبعضها كاذب .

ـ تعرف الذين تعرفوا عليك ؟

ـ هم يعرفوننى .

وضع الضابط يده على كتف يوسف . قال بلهجة رقيقة وهو ينظر فى عينيه :

ـ وأحمد عبد المجيد سالم ؟

ـ لا أعرفه •

ـ لكنه يعرفك • ثم انك كنت تعرف اسمه •

ـ سمعته من الصول •

قالت نظرات الضابط : هكذا ؟

ـ صدقنى يا « كابتن » • قلت لك سأعترف بكل شيء •

دس السيجارة فى رماد المنفضة ، وواجه الضابط بكل وجهه ، والروح الشريرة تنمو فى كل كيانه مع الصوت العنيد :

ـ وبم تفسر وجود النقد المزيف معه ؟

تمالك يوسف أن يضحك • قال ببساطة :

ـ واحد من ضحايانا •

ـ من الحمير ؟

رد يوسف بجفاء :

ـ نعم •

ـ كيف حصل عليه ؟

ـ بنفس الطريقة •

ـ بنفس الطريقة ؟

ـ نعم •

ـ طريقة قديمة يا يوسف • يحسن أن تجددوا فى أسلوبكم

تمتم يوسف بكلمات غير مفهومة • مضت فترة صمت ثقيلة • هأهأ الضابط فى أعماقه منتشيا :

« متهمك برىء ياعم مدحت » واتته فكرة سريعة :

ـ اذن فيمكن اعتباره شاهدا •

ـ لم لا ؟

قال الضابط يملى كاتب التحقيق :

« واعترف المتهم أن أحمد عبد المجيد سالم كان واحدا من ضحاياه ، وحصل على الجنيه الذى ضبط معه اول أمس من المتهم ، عندما تطوع ليفك له نفس الجنيه ، بعد أن كادت أن تحدث مشادة بين المتهم ومحصل الاتوبيس بسبب الفكة كما كما حدث اليوم » •

وعاد الضابط يتمشى ، يمناه فى خصره ، يسراه تعبث بشعره الفاحم ، ابتسامة خبيثة ترتسم على شفتى يوسف ، والروح الشريرة تفصح عن عملاق خاله سيلامس السقف • عاد الضابط اليه فجأة كمن عثر على فكرة غابت عنه :

ـ اذن فبعض البلاغات صحيحة ؟

ـ بلا شك •

ـ معنى هذا أنك تستخدم مطبعة •

ونظر فى عينى يوسف مباشرة ، وهن كتفيه باستخفاف ، وقال ببساطة وهو يبتسم :

ـ شىء بالعقل ، والا ما زيفت بهذه الكثرة •• مئات البلاغات هنا ، وآلاف فى البلدان الاخرى ••

وضحك بصوت مسموع :

ــ .. والحمير دائما فى كل مكان .

وجد يوسف أن الأمر بالفعل منطقى ومعقول .

ــ نعم أستخدم مطبعة .

ــ لماذا تلف وتدور اذن يا يوسف ؟

نظر اليه يوسف . أبتسم الضابط . قال :

ــ قهوة ؟

أومأت الروح الشريرة بالايجاب ، وترك الضابط التحقيق من جديد :

ــ اسمع يا يوسف . الرجل الذكى هو الذى يقدر الموقف الذى هو فيه خير تقدير . لا يخدع نفسه ..

وافقه يوسف على كل ما قال . أحضر الجندى فنجانين من القهوة . قال الضابط فجأة وهو يرشف من فنجانه :

ــ وأين هى يا يوسف ؟

استفهم حاجبا يوسف :

ــ المطبعة . ؟

ــ موجودة يافندم .

ــ فى مسكنك ؟

قال صوت العملاق الذكى :

ــ ان لم تكن قد سرقت .

وعاد يرشف من فنجانه • نظر الضابط الى سقف الحجرة - دق بالقلم عدة مرات فوق المكتب •

استدار الى يوسف فجأة ، وقال ونظراته تقطر ذكاء :

ـ تعنى أن شركاؤك ربما سرقوها الآن •

وضع يوسف فنجانه الذى فرغ منه •

ـ ليس لى شركاء •

طلب الضابط الى كاتب التحقيق أن يتوقف • ربت على كتف يوسف وهو يقول :

ـ اسمع يا يوسف • من المدة التى قضيتها معى ، عرفت انك شهم ، رجل • ومن دلائل الرجولة « عندكم » أن « الرجل » لا يعترف على شركائه •

شعرت الروح العملاقة أمام الحديث أن صاحبها ساذج بحق ، لا خبرة له بشئون الحياة • حلا ليوسف أن يظل جالسا ، بل راودته رغبة عارمة أن يضع ساقا فوق ساق • واصل المحقق كلامه مؤكدا أفكاره باشارة من يديه :

ـ ياخسارة . أنت فى السجن و « هم » يمرحون •• وسيأخذ واحد منهم « فتاتك » بالتأكيد وتخسر أنت كل شىء •• ونحن ••

وهز كتفيه ، ورسم امتعاضة بشفتيه :

ـ •• لن نكون قد فعلنا شيئا •• فالتزييف سيستمر ••

ظل يوسف يرمقه بنظرات جانبية ، ودوت فى أعماقة ضحكة مجلجلة • لذ له أن يرقب الضابط وهو يتمشى ، يحك جبهته ،

ويدس أنامله فى شعره . قامة الضابط متوسطة الطول وليست بالطول الذى كان يظنه عندما رآه فى بداية التحقيق . سمع صوته بعد صمت طويل :

ــ .. وعلى كل حال ، مادام الاعتراف ليس كاملا ، فلن تستفيد . لكى تخفف العقوبة لا بد أن يكون الاعتراف كاملا . أنت ذكى وتفهم كل شىء ..

ظل يوسف مواصلا صمته .

ــ اسمع يا يوسف . لك أصدقاء ؟

تمالك نفسه أن ينفجر ضاحكا . خطرت له على الفور فكرة لا يدرى الشيطان نفسه كيف يوحى بها :

ــ هذه أسماء شركائى .

أشار الضابط الى كاتب التحقيق أن يدون :

ــ حسن عبد الله يوسف . يوسف عبد الله حسن . حسن يوسف عبد الله . عبدالله يو ..

ــ قف . لا تكتب .

اتجه الضابط اليه بخطوات غاضبة :

ــ ما هذا ؟

لا بد أن قوة خفية ألصقته بالكرسى فظل جالسا . قال بهدوء مثير رغم ارتجاف أعماقه :

ــ أسماء شركائى .

ــ تسخر منى يا يوسف ؟

ـ لا . أبدا ..

وفكر لحظة :

ـ .. والله هى أسماء أشخاص .. موجودين فعلا ..

رسم الضابط بيديه علامة دهشته وحيرته .

ـ أعرف . ولكن ..

ثم اندفع فى الحديث :

ـ .. هل اخترتهم لتشابه أسمائهم ؟

وأتت العملاق لمحة أخرى من ذكاء ماكر :

ـ كل الأسماء هكذا ياحضرة الضابط . والناس أيضا .

فتح الضابط عينيه كما لو كان مستيقظا لتوه .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا شىء .

تمتم الضابط يحدث نفسه :

ـ يوسف حسن عبد الله . عبد الله حسن يوسف . يوسف عبد الله حسن ..

ثم صاح وقد زر على عينيه :

ـ .. مستحيل أن تكون هذه صدفة . أنت لا تقول الحقيقة .

أرهف يوسف عند سماع الكلمة :

ـ .. وليس هناك أناس بهذه الأسماء .

ـ بل هناك وأقسم لك .. وستجد أيضا من يشهد عليهم .

ظل يوسف يتابع الضابط بنظراته . قلب الضابط يديه فى حيرة :

ـ أتصل الصدفة لهذا الحد العجيب ؟

خيل ليوسف أن قامة الضابط قد ازدادت قصرا . انتفخ العملاق الذى امتد فى كيانه وأصبح ذكاؤه لا يطاق :

ـ تلك ياحضرة الضابط أسماؤهم الحركية .

ـ وأسماؤهم الصحيحة ؟

ـ لا أدرى . سيادتك تعلم . فى مهنتنا هذه ، لا أحد يثق بالآخر .

صمد يوسف لنظرات الضابط فلم تختلج فى قسماته عضلة .

ـ أنت لا تقول الحقيقة .

ـ أقسم ألا شىء مما قلت يخالف الحقيقة .

أخذ الضابط يدق المكتب بقلمه دقات خافتة . قال يوسف قطعا للصمت :

ـ عيب يا كابتن . صدقنى . لقد أكرمتنى .

عاد الضابط يذرع الغرفة جيئة وذهابا . استمرأ يوسف بلذة خبيثة النظر اليه . التفت الضابط ليقول بلهجة من وجد ما يقوله :

ـ اسمع يا يوسف .

ودق جرس التليفون :

« آلو .. نعم يا كابتن شرف .. (ارتخت عضلات وجهه المشدودة بل ابتسم) .. أنا عادل ياشرف .. موجود أمامى .. الولد الذى أمسكه « عمك » مدحت برىء .. اعترف بذلك (ونغم صوته واتكأ بكرسيه الى الخلف) .. بكل التفاصيل يا شرف ..

واربدت سحنته فجأة ، وهرب الدم من وجهه ، واعتدل فى جلسته ، وتحفزت كل خلايا جسمه :

« ماذا تقول ؟ .. مستحيل ... غير معقول .. أنت بنفسك ؟

دهم يوسف خطر غامض وتحفزت كل مشاعره .

« أنت الذى قبضت عليهم ؟ .. ومتلبسين ؟ .. والمطبعة ؟ .. جارى البحث عنها ؟ .. مع السلامة .. مع السلامة .. »

أسند رأسه بكفه ، وغطى عينيه بالأخرى . انتفض واقفا فجأة . دب خوف حقيقى هز كل أعماق يوسف . لمح كاتب التحقيق كأنما فوجىء بوجوده . أمره أن يغادر الحجرة فى الحال . اشتد خوف يوسف . أخذ الضابط يتمشى بخطوات ذاهلة لا وقع لها .

— .. هنيئا لك ياشرف .. نلت فرصتك . تحرياتك كانت أدق ماذا سيقول الحكمدار ؟ وشوشو ؟ ... والمكافأة ؟ ما هذا الذى يحدث ؟

وقعت نظراته على يوسف . أفاق الى نفسه . نظراته حولت خوف يوسف الى رعب حقيقى . صاح فيه بصوت يزلزل جبلا :

— من أنت ؟

صوت يوسف الهادىء لا يفصح عن حقيقة ما يعتمل فى نفسه من مشاعر :

ـ يوسف حسن عبد الله .

قذف الضابط بصينية القهوة فى وجهه . انتفض يوسف واقفا . انكمش فى الحائط . اتجه الضابط اليه . رفع يوسف غريزيا يديه ليغطى بهما وجهه ورأسه . جذبه الضابط من خانقه . سار به خطوات وهو يصيح :

ـ يوسف حسن عبد الله . عبد الله يوسف حسن . حسن عبد الله يوسف .

ولصقه بالحائط فى عنف .

ـ يا أبناء الكلاب .. ماذا تريدون منا بالضبط ؟

برغم كل ما حدث ، ظل شىء خبيث كامن تحت جلد يوسف يرقب المشهد المثير بلذة .

ـ .. أكاد أجن . من جاء بك الى هنا ؟

رد الصوت الهادىء المثير :

ـ الشاويش عبد العليم .

ـ حمار أنت وهو .

ولصقه مرة أخرى بالحائط ، وتدلت ذراعا يوسف الى جنبيه .

ـ .. يا لوح . لو قيل لك : ارم بنفسك فى النيل . تفعل ؟

تركه واتجه نحو النافذة يتطلع الى الأشـــجار . تنفس ملء رئتيه بصوت لاهث . اختفى العملاق وصمت الصوت العنيد نهائيا في أعماق يوسف ، وعادت دعوات أمه الساذجة ، وجلجلت ضحكات زملائه بالعمل ، وانســاب الدمع غزيرا من عينيه ، وشعر كأن يدا تطبق على عنقه توشك أن تهتك حلقه . سمعه الضابط يتشنج . التفت نحوه في غيظ :

ــ ماذا يبكيك ؟

ــ سيدى . أنا المزيف الحق . أنا الذى تبحثون عنه .

أدار الضابط ظهره . قال يحادث نفسه أكثر مما يرد على يوسف :

ــ وهؤلاء الذين أمسكوهم متلبسين ؟

ازدادت دموع يوسف انهمارا . ضحك الضابط في مرارة . عاد يذرع الغرفة طولا وعرضا .

ــ هيه . جنيهات زائفة . عقود زائفة ..

ــ سيدى . أنا المزيف الحق . أنا الذى تبحثون عنه . أنا معترف بكل شيء .

ــ اخرس قلت لك . أغرب عن وجهى . اذهب للحجز حتى نرى .

أسقط في يد عادل ومدحت ، فقد انهارت كل أدلة الاتهام ، وأقسم المزيفون « الجدد » بكل ما لديهم من كلمة « شرف » أن أحمد عبد المجيد سالم ويوسف حسن عبد الله لا يمتان اليهم بصله ، بدأ الضابط شرف يذرع الغرفة فى ثبات ويوجه حديثه بكل ثقة لأحمد ويوسف :

— أنتما أيضا من شهودنا • أنت (وأشار لأحمد) أخذت الجنيه من هذا الرجل (وأشار لرجل متهدل الملابس ، منكوش الشعر ، تصبغ الكدمات وجهه ، ويغطى الورم أحدى عينيه)عندما تطوع ليفك لك خمسة جنيهات فى الأتوبيس • وأنت (وأشار ليوسف) بنفس الطريقة من هذا الرجل (وأشار لآخر نصف نائم ، يستند الى الحائط ولا يلقى بالا لما يدور حوله) •• أليس كذلك ؟

تمتم المتهمان « السابقان » وطأطئا رأسيهما • اتجه شرف الى المكتب • جلس باعتداد • أشار لكاتب التحقيق أن يدون الاستجواب •

— اسمك ؟

هم الرجل المنكوش الشعر بالرد ، لولا أن دق جرس التليفون • هب شرف واقفا ، والتقط السماعة فى سرعة :

آلو •• من ؟ •• صادق ؟ •• كابتن صادق ؟ ••

وجالت نظراته الدهشة فى وجوه من حوله ، وسقط جالسا والذعر يملأ كل قسمات وجهه :

« •• نعم ؟ •• ماذا تقول ؟•• مستحيل •• مستحيل •• غير معقول •• »

١٩٦٦

فهـرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٢٨٥٤/١٩٧٠

الثمن ١٥ قرشا

الهيئة المصرية العامة للـ